نصري الصايغ

حوار الحفاة والعقارب

دفاعاً عن المقاومة



حوار
الحفاة والعقارب
دفاعا عن المقاومة

نصري الصايغ

حوار الحفاة والعقارب

دفاعاً عن المقاومة



A DIALOGUE BETWEEN BAREFOOT PEOPLE AND SCORPIONS

In Defense of the Resistance

By

Nasri Sayegh

First Published in January 2007

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-258-9

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

المحتويات

دين ودماء

الإهداء

إلى
أنطون سعاده
الذي أرشدني
إلى
السيد حسن نصرالله
الذي خلفه مشيت

مقدمات متقاطعة

I

ولدت في الحرب العالمية الثانية. زوجتي ولدت في السادس من آب، عندما كانت هيروشيما تستعد لدينونة القنبلة الذرية. والدي ماتت أخته على كتفيه جوعاً. كان يتسوّل لقمة. قال لي: لم أسرق في حياتي، إلّا خبزاً. ورث من سوق مشغرة كلباً. صادقه، ثم باعه، كي لا يموت من تبقى من العائلة جوعاً.

إنها الحرب. جدي أخذوه عنوة إلى سفربرلك. لم يكن معه شراء حريته وهربه. أخذوه، لكنه، وحيداً عاد من الجبهة التركية إلى أضَنَه، فإلى حلب ثم إلى بعلبك ومنها إلى مشغرة، سيراً على الأقدام. وصل قريته. كانت جدتي قد ماتت. أخذوها إلى الكرنتينا المؤقتة في قعر الوادي. صبوا عليها الكلس. كانت قد تلوثت بداء

الجدري، بعدما حوّلتها الحرب، وسفربرلك زوجها، إلى «غسالة» متنقلة، وهي ابنة فلاح مكفي.

إنها الحرب

أولادي ولدوا قبل الحرب بقليل، وفي معمعات القتال. هربنا من بيت إلى بيت. تهجّرنا من كل المناطق، إلى كل المناطق، ومن كل المذاهب والطوائف. لم يعد لنا مكان يؤوينا. اختبأت في لبنان مع عائلتي في أرض فرنسية، انتقلت بعدها إلى منفى جميل، حيث الحرب تجري فقط على شاشات التلفزيون والسينما.

أمس، عادت حفيدتي إيناس إلى لبنان، كي تبقى فيه. إنها آخر ما تبقى لي في لبنان. أهلي في كندا. تراب أوتاوا حضن جسد أبي وذاكرة أمي. ولي إخوة وأخوات، يتشوقون بلدهم، ولا يعودون. انتهى بهم مطاف التهجير، إلى الإقامة الدائمة في أفراح الغربة الحزينة.

بعض عائلتي وأقاربي، ما زالوا يرقدون في مقابر جماعية معروفة جداً. بعض أصدقائي ورفاقي، لم يعودوا بعد. خطفوهم، وربما قتلوهم. ربما كان يجب أن أكون مقتولاً. لكن ذلك لم يحدث، وأنا لم أفعل.

إنها الحرب مراراً وتكراراً. إنها الهواء الذي عرفته أباً عن جد. وأورثه لأولادي وأحفادي. لإيناس العنيدة أقول: كتبت لك باقة سماء في قصائد، لكنني لا أستطيع أن أمنع الحرب عنك. وقبل قدومك السماوي إلينا، كانت بيروت مأوى الحزن والأمل، والجنوب يقاتل عدواً، وإسرائيل تدرب أسلحتها الجديدة، ونتدرب على الكارثة، تماماً، كما كنا نفعل من قبل.

إنـهـا الحرب في كـل مـكـان. إذا أردت أن أحـصـي الجراح الـتـي أصابتني، لبدوت كخرقة ممزقة من أحداث وأشلاء وكوارث. صدف أنني كنت في كلية الطب في الجامعة اليسوعية، مستعداً لامتحان آخر السنة. أقفلت أبواب المدن بالعتمة. طلي زجاج النوافذ بالأزرق، خوفاً من القصف الليلي. وفي السادس من حزيران/ يونيو، مضيت أبحث عن ثياب القتال الكاكيّة. لـمّا وجدتها كان عبد الناصر يستقيل، وبكائي يضيع عيني في سخاء الدمع. وكانت الجيوش العربية راكعة على قدميها. وفلسطين العائدة ذهبت إلى ما يشبه «بغير رجعة».

إنها الحرب: تاريخنا الوحيد. إنها الهزائم: حقائقنا الأكيدة. لذلك، قررت أن أكتب عن هذا الحيوان الشرس، الذي يستجديه الإنسان، كي يحل له مشكلاته. وهكذا، بدل أن أتدرب على الحياة بسلام، كان عليَّ أن أتدرب على حب الحياة الرائعة وسط الخرائب وفي أوجاع الكوارث وفي آلام الجراح.

كان عليَّ أن أعرف لماذا عندما كنا نذهب إلى الحروب لنحصي خسائرنا، كنا نتشبث بجيوشنا المهزومة. ولما ذهبنا إلى المقاومة، لنحصي أرواحنا الناصعة، كنا نتهافت بسرعة لا أخلاقية، مطالبين بنزع سلاحها. كان عليَّ أن أتهم. ما هذا التفاني في تبني الهزيمة، وتعليق المقاومة الناجحة، على منصة الإعدام.

ولقد عرفت، ولم أكن وحيداً في العارفين.

II

والسلام؟؟؟

إنه الفردوس المفقود. هو الشهوة التي لا تصل إلى ذروتها. إنه العبث الجميل. إنه قدرنا الذي لا يتحقق وسيرتنا التي لن نمضي بها إلى النهاية.

السلام، هو الوجه الآخر للحرب. هو وجه الكسل واللامبالاة والركود والطمأنينة والتعفن والانقراض. السلام وباء قاتل. الحرب قتل محي. السلام؟ كم هو ممتع أن نحياه. نحن أكثر الناس شوقاً إلى وردة نطمئن إلى عطرها. إلى سروة لا تنحني قرب مقبرة، إلى بحر ينشد شهوته زبداً. إلى سماء تقطر زرقة وتحبل بالأماني. إلى مطر يشبه دموع العذراء. إلى امرأة نحبها، وجمال نتذوق شاعرية حواسه الخمس.

كم هو ممتع ورائع، أن يجلس شاب وفتاة في ظل شجرة يقلدان أغصانها، وأسرارها، عندما يغيبان في الفراش كالجذور في عتمة العناق! كم هو لذيذ أن نمارس السلام كالجنس الطاهر، كالملائكة المفتونين بالبياض والرقص الإلهي!

لكن للبشرية نظاماً مختلفاً. إنها تحب الحروب. ولي على ذلك أدلة:

III

ليس في العالم حكومة، تضم في طاقمها الوزاري، وزيراً للسلام. باستثناء دولة الفاتيكان الرمزية، والتي لا تملك مؤسسة عسكرية.

فلنتصور، لو أن الحكومات في العالم، تضم وزراء سلام، فإنه من الحتمي، ألا تحتضن بين وزرائها وزير حرب أو دفاع. الأول ينفي الثاني، والعكس صحيح.

عالم بأمه وأبيه، ليس فيه مؤسسة سلام حقيقية، وظيفتها البحث عن السلام. فوزير السلام، في الدولة، سيهدف إلى حلّ كل المشكلات بالسلام، بالتفاوض، بالحوار وسيكون محاطاً بثقافة سلام وروحية سلام. ليس أمامه إلّا سلوك طريق السلام. وهو سيكون ملزماً بذلك إلى الأبد. لأنه، كوزير سلام، ليس من حقه أن يؤسس الحرب. فهو ضد الحرب، لأنها الخطيئة الأصلية، والتجديف على الروح، وارتكاب للكبائر، ومخالفة للدستور والشرائع.

الذي يحصل، إذا كانت الحكومات مزوّدة بوزارات سلام، أن تنشيء تربية على السلام والحوار والانفتاح والاعتراف بالآخر والاحترام وحقوق الإنسان والأخوة والمصالح المتبادلة والإنسانية الشخصانية المبثوثة في كل فرد، واعتبار التراتب بين الأفراد، هو تراتب إنتاج وحب وعطاء وعمل ولذة ومتعة و..

لنفرض، ولو من باب الخرافة، أن الولايات المتحدة الأميركية، ستقرر غداً، إنشاء وزارة سلام. النتيجة، أنه سيصار إلى اعتقال الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش، ونائبه ديك تشيني ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد وعصابة المحافظين الجدد، وسوقهم جميعاً إلى معسكرات التعذيب والتدريب على السلام. وسيكون عذابهم فظيعاً بحجم جرائمهم الحربية.

الواقع عكس ذلك: الإدارة الأميركية تعتبر الحركات السلمية المناهضة للحرب، في وضعية خرق قانون المواطنة. إنها في صف حلف الشر.

السلام استثناء مضر بصحة الشعوب والدول. يهددها بالانحلال

والزوال. هكذا قيل، والمسألة ليست متعلقة بالقيادات العسكرية. فالمؤرخون، يختارون الحروب مادة لكتاباتهم. نادراً ما يؤرخ للسلم. فما بين ١٩١٨ و١٩٣٦ في أوروبا لا تسمى فترة السلام، بل يطلق عليها فترة «ما بين الحربين». مرحلة السلم محذوفة. وجود السلام يكرس الكسل في مناهل التاريخ. كأن التاريخ تصنعه الحروب والصراعات والفتن. لودفيك غومبلو فيتز، رأى، في مطلع القرن العشرين، أن القانون الأساس في الاجتماع البشري، هو قانون الحرب.

العالم شديد التعلق بثقافة الحرب. رموز الحرب هي رموز الجماعات والدول والمجتمعات الحديثة: الجندي المجهول، النشيد الوطني (حربجي وحماسي وبطولي). النصب التذكارية لقادة الحروب والمعارك (إيوان كسرى نموذجاً)، الموسيقى العسكرية، العيد الوطني، الاستعراض العسكري، أعياد النصر، كل هذه الثقافة مشتقة من تمجيد الحرب.

إحدى بلدات أوروبا، فاز فيها حزب «الخضر»، وحركات السلام، في الانتخابات المحلية، فحاول بعض «سلامييها» تغيير اسم الساحة العامة المعروف بساحة النصر (Place de la victoire) وتسميتها «ساحة السلام». سقط الاقتراح. فالأكثرية السلمية ما زالت في ثقافة الحرب.

الحرب معمودية البشرية،

الحرب قربانتها الأولى،

الحرب جلجلتها وعرسها الدموي،

والحرب، كما هي مشتهاة، تقرع أبواب القيامة. ويحدث، أن تفوز الحرب بالسلام. ولكنها تلغيه بعد ذلك. لذا، يذهب الناس إلى الحرب بثياب المعارك، ويذهبون إلى السلم بثياب القتال أيضاً.

المشكلة ليست في القيادات المجنونة بالحروب، بل في همجية الثقافة الإنسانية، التي بنت حياتها على موتها، وأصرت على أن تعمر أفراحها على فوهات البنادق، وأن تكلل أعراسها برائحة البارود.

لذا، فأخلاق البشرية، أخلاق قاتلة والشعارات الإنسانية، قذائف دعائية، في المعارك العسكرية.

فكل المحاربين، يحاربون من أجل قضية مقدسة. حتى بن لادن وبوش يدّعيان ذلك.

الحروب المقدسة، هي كذلك عند جميع المتحاربين، فسلّم القيم، ليس نسبياً فقط، بل هو مناقض ومتناقض ومشبع بالكذب.

IV

لست مقاتلاً ولن أكون. ربما كان عليَّ أن أضم إلى مذكراتي أسماء المعارك والجبهات وأدوات القتال. ليس عندي من هذا التراث، إلّا الرغبة في القتال. كان لديَّ باستمرار أعداد غفيرة من الدوافع كي أقاتل.

أنا الذي كنت أخاف من العتمة، وأخشى النظر إلى الأموات وأتجنب فرجة المآتم وحسرة الملتاعين وأحاديث أبطال القتال، كنت

أتمنى أحياناً كثيرة أن أكون مقاتلاً، لكنني لم أفعل.

أنا الذي تربيت على التقوى ومعمودية الروح وصلوات السالك في طريق الكهنوت، لأصبح راعياً على رعية من المؤمنين، كنت أتمنى أن أشارك في صدّ العدوان على مدينة السويس، وكان لي من العمر آنذاك، فقط اثنا عشر عاماً.

أنا الجبان الضئيل. من أين كانت تأتيني هذه الرغبة؟ من أين كنت أبتدع هذه المهمة؟ غيري كان يسبقني إلى الجبهة. ذهب إلى الأغوار في الأردن. تدرّب على حرب العصابات. تسلّلَ إلى «فتح لاند»، إلى مطارح العرقوب، وقاتل. غيري انتظم في خلايا مؤطّرة حول العمل الفدائي الفلسطيني. أنا لم أفعل. فبدل أن أقاتل، كنت أكتب، والفارق شاسع.

لم أحقق رغبتي في القتال، ولا مرة. لا أعرف كيف تستعمل أي قطعة حربية. إذاً، كنت كمن يشبه «عودة الشيخ إلى صباه» اشتهاء واستحالة. إنما، من أين اجتاحني هذا الشعور بضرورة جعل الكلمة مستودعاً للذخيرة.

عندما كنت طفلاً، كنت أحلم بالخبز وأعناق الزهور واستدارات الصنوبر وانحدارات الوديان وسماحة السهل. كنت ألم الفراشات وأقطف لها سماءً لتطير فيها. كنتُ لا أؤذي نملة. وفي المقابل، كنت أحتمل الأذية والإبعاد والدونية الطبقية وحرمات المكانة وممارسة حياة المنبوذ. إنما لم أستطع مرة أن أحتمل ظلماً يصيب الضعفاء.

عانيت في طفولتي. مشاهد الدرك والجيش وهم يقتادون أهلنا في مشغرة، عراة في الشارع، ويجلدونهم على مرأى الجميع. ثم،

تعرفت إلى مظلومين نموذجيين. الفلسطينيون الهائمون على وجوههم، بحثاً عن ملجأ بدل وطن، وعن خيمة بدل بيت، وعن كسرة خبز بدل بيارة ليمون، وعن إقامة وكرامة.

ظلم، كان يحيط من كل جانب.

ولم أكن أنا مسؤولاً عن ذلك. إلّا أنني كنت أدرب أصابعي على الانكماش، كي تتحول يدي إلى قبضة، وكلمتي إلى لكمة.

V

لماذا حدث لي، أو لنا، كل هذا وانتقلنا دفعة واحدة، من معانقة الحرف إلى... فتنة القتال؟

لم أكن أعرف، ثم عرفت. أنا لم أخلق عدواً لأحد ولست عدواً لأحد. لكن أحداً ما أو واحدين كثراً، اختاروني، كي أكون عدواً. شوهوني، فتشوَّهت. وباتت إنسانيتي مشروطة بالقتل، أو باشتهائه.

قرأت ذات مرة قصة حصار قرطاجة وإحراقها:

بكى القائد الروماني سيبيون بعدما أحرق قرطاجة ودمّرها وسبى أهلها. انتحى مكاناً مجانباً للدمار، والتزم صمتاً وسحنة حزن بادية على وجهه، وصيغة سؤال على جبهته. أيبكي المنتصر الذي انتظر لحظة تتويجه هذه، والذي ستضع روما على رأسه إكليل الغار؟

يلتزم الرواة بسرد ما يلي:

وقف سيبيون وحيداً، وراح يردد أشعار هوميروس:

«سيأتي اليوم الذي تهلك فيه إيليون المقدسة!

وبريام.. سيهلك معها، كما يهلك الشعب كله»!

وسمع المؤرخ الفيلسوف بوليب تشاؤم صديقه سيبيون: ماذا تفعل؟ لمَ أنت حزين؟ ما معنى هذا القول المتشائم؟

فأجاب سيبيون: «لم يعد لروما أعداء. إنه يوم النصر يا بوليب. إنه ليوم رائع، ولكني لا أعرف سبب القلق، ربما أستشعر اللحظة التي يحضر فيها الآخر ويفرض على روما المصير نفسه الذي فرضته على قرطاجة».

ولأن إمبراطورية كروما، لا تستطيع أن تحيا بلا أعداء، فقد التزم الفيلسوف بوليب، هنتنغتون العصر الروماني، البحث عن أعداء جديين لروما. لكن أين سيجد بوليب أعداء؟ كل أعداء روما هزموا.

إن حضارة كروما، لا تستطيع أن تأنس إلى فراغ يحيط بها، من دون أن تراودها فكرة معاينة موتها الخاص.

هكذا، تكفل بوليب بصياغة العدو الجديد، وقد وجده. المحافظون الجدد وجدوا جبهة من الأعداء ومحوراً من الشريرين والمارقين. بوليب، صاحب الازدواج الكبير في الفكر السياسي العالمي، وجد أن لروما أعداء كثراً، وهم الأعداء المحتملون.

من هم أعداء روما الجدد؟

إنهم البرابرة.

من هم البرابرة؟

إنهم الأعداء القدماء الذين دمرتهم روما، وأحالتهم من المدنية والحضارة إلى البربرية. على روما إذاً، مهمة صياغة عالم جديد من خلال تعميم ثقافة روما وحضارتها وقيمها بهدف تهذيبه وإخضاعه.

ازدواج: تهذيب العالم، مهمة روما الحضارية.

احتلال العالم وتملكه، مهمة روما السياسية.

إن الركام البربري الذي صنعته روما، هو العدو الجديد لروما.

وفهمت أنني مختار لأكون عدواً لا صديقاً، وعليَّ أن أتهيأ للقتال أو القتل. وهكذا حصل. العرب، ما كانوا أعداء أوروبا في الحرب الكونية الأولى، ولا كانوا ضد اليهود، ومع ذلك عوملوا كأعداء. سُحقوا كأعداء. احتلوا كأعداء. نهبوا كأعداء. وما زال المشهد يتراكم: بغداد تحترق، فلسطين تكتوي، بيروت تغلي و.. إن الركام العربي، هو العدو المختار من الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل.

هكذا صرت عدواً.

بحثوا عن عدو، فوجدوني، وأقنعوني بثبات، بأنني عدو. كنت أرغب أن أكون صديقاً ودوداً جداً. فأنا أقرأ آدابهم، وأتمتع بموسيقاهم، وأقلد عاداتهم، وأسخو في محاكاتهم، شعراً وأدباً وفناً سابعاً. لا مشكلة عندي مع تقاليدهم وعاداتهم، مع لون بشرتهم وأساليب فرحهم.

مشكلتي، وأنا المرشح لأكون صديقهم، أمروني أن أتحول إلى عدو.. وهكذا صار.

بوليب القرن الراهن، لا يزال حياً يرزق. يفتش ويجد أعداء. وهاكم حكاية أخرى، توجز فلسفة الاستعداء العالمية، لي ولمن هم مثلي.

في مقارنة يعقدها روبرت كاغان، بين سياسة الولايات المتحدة الأميركية وسياسات أوروبا، يصل إلى أن الطرفين لا يعيشان في كوكب واحد، فأميركا في كوكب وأوروبا في كوكب آخر.

والسبب هو التالي:

العالم يشبه الغابة، يقول كاغان. وفي هذه الغابة يقيم الأميركيون والأوروبيون. يتصرف الأميركي وفق القاعدة التالية: في الغابة عدو، علينا أن نبحث عنه، أن نذهب لاكتشافه، قبل أن يدهم ويهاجم مكان إقامتنا. بينما تكتفي أوروبا بانتظار العدو كي تحاربه إذا جاء. أوروبا لا تذهب اليوم، لتبحث عنه، مع معرفتها أن الغابة يمكن أن تكون مليئة بالأعداء. إنها تكتفي بالانتظار، لأنها عاجزة عن الذهاب إلى أطراف الغابة وأعماقها، لتجد العدو الذي تجده أميركا، أينما ضربت يدها.

الفرضية الأميركية إذاً: هناك عدو فلنبحث عنه ونضربه.

الفرضية الأوروبية: قد يكون هناك عدو، فلننتظره.

الأولى: حروب استباقية.

الثانية: معالجة الأعداء بالانتظار، والدبلوماسية، والمساعدات.

أوروبا تحاور لأنها ضعيفة. عندما كانت قوية، كانت تذهب إلى أطراف غابة هذا العالم لتجد الأعداء، وتقاتلهم.

الحرب لغة الأقوياء وأسلوبهم.

الدبلوماسية فن الضعفاء.

إذاً، أنا لا دخل لي في اختياري عدواً. أنا على هذه المنصة من زمان لأنني ضعيف.

الضعفاء هم أعداء الأقوياء، حتماً.

VI

يصرخ «ميكات» في مسرحية «ماكبث»: «أكبر عدو للإنسان هو الأمن».

لم أفهم إلّا بعدما تعرفت إلى فلسفة الأمن.

كي تحافظ على الأمن يجب أن تكون قوياً، ويجب أن تكون مستعداً لاستعمال القوة، ويجب أن تقاتل، وتزيد من فقدان الأمن، لاستعادة الأمن، وهكذا دواليك.

لم أفهم إلّا بعدما تعرفت على ميزانيات الدول الصغرى والكبرى التي تنفق على الأمن العالمي والأمن القومي والأمن الوطني والأمن

المناطقي، والأمن الاقتصادي، والأمن الاجتماعي، والأمن البيئي، والأمن الشخصي.

عالم فاقد الأمن، بسبب كثرة أجهزة الأمن. عالم فاقد السلامة، بسبب كثرة أجهزة الحرب.

معه حق شكسبير، الأمن أكبر عدو للإنسان، لأن بلوغ حالة الأمن يلزم أن تعبر دائماً حالة اللاأمن.

مفهوم؟

طبعاً. وإلّا كيف نفسر ربط الأمن القومي الأميركي بأمن بنغلاديش، ورأس الخيمة، والضاحية الجنوبية، ومارون الراس.

VII

هل يعقل أن يقال: لا إنسانية من دون حروب؟ أي تتأكد إنسانية البشر من خلال القتل المتبادل؟ لعل في التراث الإنساني، ما يؤكد مركزية الحرب في الإبداع الفكري والثقافي والأدبي والفني (موسيقى، نحت، تصوير). لعل ما ينتجه الحاضر المعاصر، من شرائط وصور وكتب وروايات وأفلام وقصائد، يبرز أن العصب الشوكي لكل هذه النتاجات هو العنف والحروب عامة.

ففي الإمكان، رصد أعمال خالدة في الفكر والفلسفة والأدب والشعر والرواية والموسيقى والنحت والأفلام، ما كان ممكناً إبداعها لولا الحرب. إن أدب الحرب ينافس أدب الحب، وأحياناً يتفوق عليه. البشرية مغرومة بدمارها. إنها شهوة الموت المترافقة مع شهوة الحياة.

ولذلك، اهتم المفكرون بظاهرة الحرب، لأنها من جوهر الوجود الاجتماعي. صن تسي. في «قواعد الفن العسكري» (نلاحظ استعمال كلمة فن مع ما تفضي إليه من دلالات الإبداع والابتكار) يؤسس لعلم أنضجه كلاوسفيتز فيما بعد. وما بينهما قافلة من المفكرين: موريس دو ساكس، فون مولتكه، الجنرال فوش، الجنرال ديغول، وكثير من المذكرات.

قبل ذلك، عرفت الحروب أسماء فكرية لامعة: توسيديد، تيت ليف، ناسيت، جوانفيل، فولتير، بشليه، غريغوار دوتور.

ثمة حاجة إلى شواهد ومقتطفات، بيكوت يرى إلى الحرب كفعل تطهير إنساني: «أي جسم طبيعي أو سياسي، لا يمكنه الحفاظ على نفسه من دون تمارين. إن سلاماً طويلاً يثبط الشجاعة ويجعلها تنحل. يفسد العادات والأخلاق. إن حرباً عادلة لأي دولة، هي التمرين الأساسي لحفظ إنسانيتها وسلامها».

فيخته لا يرى وجوداً لشعب خارج القتال: «بواسطة الحرب، وبالنضال المشترك، يتحول شعب من الشعوب، إلى شعب حقيقي». أما فيكتور كورسان، فقد رأى الحرب ضرورية للحياة.

دايفيد هيوم كان يخاف من الحرب الدائمة لأنها تحول الناس إلى وحوش ويخشى من السلام الدائم لأنه يحول الناس إلى قطعان.

اللورد بيكوت في «دون جوان» يقول: «الحرب وحدها، تحفظ الإنسانية من التعفن»، حتى الفيلسوف إيمانويل كانط، نعى السلام خلقياً، ورأى أن السلام المديد يتيح للروح المرنكتيلية السيطرة على

الإنسان، كما أنه يصبح عرضة لمثالب الكبرياء والجبن والتراخي.

«فالحروب ليست آفة إلّا على المستوى الأخلاقي، والأخلاق مستبعدة من هذا الميدان، حيث السياسة عنف السيطرة والحاجة قوة المنطق، والقوة منطق التفوق. أليس لذلك يقر روسكين بأن الأمم العظيمة ولدت في الحرب وبواسطة الحرب، ثم... ماتت بالسلام».

إن الحرب تحيط بنا من كل جانب. كانت قبلنا. وهي معنا الآن، وستكون مستقبلنا فيما بعد. قيل: «ويل للمهزومين، والمجد للمنتصرين».

VIII

لمَ هذا الكتاب؟

لأن: «الويل للمهزومين والمجد للمنتصرين».

وأنا من المؤمنين بانتصار الحق، وأعمل له. وعليه، فأنا من المؤمنين كذلك، بأن نيتشه كان على صواب: «إن حقيبة كبيرة مليئة بالحق، خير منها، قبضة صغيرة مملوءة بالقوة». وإني من أتباع مذهب أنطون سعاده. «القوة هي القول الفصل، في إثبات الحق أو إنكاره».

لكي نعرف كيف نكون أقوياء وإنسانيين وأصحاب قيم، كان هذا الكتاب.

ولكي نعرف أن المقاومة المصانة من شعبها، والمنغرزة في ثقافته وسلوكه وإبداعه وفكره وسياساته، هي الأقوى على الإطلاق

وأبواب الجحيم لا تقوى عليها، كان هذا الكتاب.

فلهذه الأسباب، جمعت عدداً من الدراسات والمقالات والأبحاث متكلاً على سماحة القرّاء في مغفرة أخطائي، وتنبيه الأصدقاء إلى يعتور الكتاب من نقص.

تجربة للمستقبل

مستقبل المقاومة

I ـ الأسئلة

ما هو مستقبل المقاومة؟ ما الدور الذي ستؤديه؟ هل ستكون عنصراً أساسياً في استراتيجيات الدول الضعيفة أو المستضعفة؟ وثمة أسئلة أخرى: ما هو مستقبل الجيوش النظامية؟ أي دور ستؤديه ميدانياً، أو، عسكرياً؟ هل تراجعت أهمية الجيوش الكلاسيكية في استراتيجيات الدول المستضعفة، وبات عليها استنباط دور جديد لممارسة مهمات حماية الدولة والدفاع عن حدودها، بفاعلية وأفق مفتوح على احتمالات الصمود في المواجهات الميدانية؟ هل ستحتل المقاومة مرتبة متقدمة في تدعيم مفهوم السيادة؟

II ـ تغيّرَ العالم

تحتاج هذه الأسئلة إلى أسباب. طرحها لم يأتِ من فراغ. دلالات

التبدّل والتغير طاولت بنى كثيرة، على المستوى الدولي، وعلى المستويات الإقليمية، سياسياً واقتصادياً و... عسكرياً.

تغيّر العالم. يقال: صار العالم يشبه مستقبله، ولن يقلد ماضيه. قد تكون الإمبراطورية الرومانية شبيهة لصورة العالم التي تتكوّن اليوم. لكن أوجه الشبه، ليست حذو النعل بالنعل، فـ«الإمبراطورية الأميركية»، قيد التأسيس، وبحاجة إلى الكثير من «الانتصارات» لتعيد صياغة العالم كما ترغب. وعليها أن تحسم في تكوين عقيدتها، هل ستستمر دولة قومية متعالية القوة، مسؤولة عن مصالحها وأمنها، أم أمامها دور إعادة صياغة العالم، وتغييره، وفق مصالحها ومطابقة مع سلّم قيمها الثقافية والسياسية؟

III ـ هديتان

لحظتان حاسمتان في تغيّر العالم: سقوط الثنائية القطبية، بين المعسكرين، الشرقي والغربي، واحتلال الولايات المتحدة الأميركية منصّة القيادة العالمية، محصّنة بتفوّق علمي وتقني، وتفوّق اقتصادي ومالي وإنتاجي، وتفوّق عسكري خيالي، برّاً وبحراً وجواً، وتفوّق ثقافي نخبوي وسلعي.

واللحظة الثانية: سقوط برجي التجارة العالمية في نيويورك، وتدمير جناح في البنتاغون، ومحاولة فاشلة لضرب المؤسسة السياسية، في البيت الأبيض والكونغرس. تسلّمت الإدارة الأميركية هدية دموية ثمينة، دفعتها بسرعة، لتنفيذ خططها وسياساتها المعدّة مسبقاً، من قبل «عصبة المحافظين الجدد»، والقاضية بتعميم الحروب الاستباقية، وإطلاق يد القوات العسكرية لضرب العدو، الواقعي أو المفترض أو الوهمي أو المطلوب استعداؤه، في مكان إقامته، ولو كان بعيداً

جداً عن القارة الأميركية. فأميركا ليست مواطناً عادياً في العالم. إنها القوة المسيطرة، والتي تفرض قوّتها، لا يستطيع أحد أن يقلّدها أو يكون شبيهاً بها، منذ روما الإمبراطورية. (شارل كروتامر ـ ٢٠٠١ ـ واشنطن بوست).

IV ـ الطاعة أو الندم

من تداعيات سقوط جدار برلين، وانهيار الاتحاد السوفياتي، تراجع الدور الأوروبي، سياسياً وعسكرياً ـ برغم النجاح الذي حققته الخطوات الحثيثة لإقامة الاتحاد الأوروبي ـ وتخلي هذه الدول عن أدوارها في تقديم بعض العون والعناية لدول العالم الثالث، المنكوبة بأنظمتها الاستبدادية، وفقرها، كنتاج للنهب المنظم من قوى محلية وغربية. وانحصر دورها، إمّا في اتباع السياسة الأميركية، مضطرة أو مكرهة، أو في معاندة هذه السياسة، بلا جدوى، حيث إن القوى الأعظم، أعطت لنفسها حق الإمرة عالمياً. فالاستقلال عن الولايات المتحدة ممنوع، وبلغة ألطف غير مقبول، لأنه يشكل إعاقة لخططها وسياساتها. وعليه، فالمطلوب أميركياً من أوروبا أن تلتحق بالاستراتيجيا الأميركية أو الندم، لأن تخطي المترددين وسحقهم سياسياً سيكون أمراً ضرورياً لنجاح استراتيجياتها. تخلت الولايات المتحدة وأوروبا عن حلفائهما في العالم الثالث، ولافتقادهم وظيفة كانوا يؤدونها إبّان صراع الشرق والغرب.

وهكذا تحولت المجموعة الأوروبية إلى مجموعة ممثلين، يقدّمون إمّا أدوار الطاعة، (دول أوروبا الشرقية سابقاً: إيطاليا ـ برلوسكوني، بريطانيا ـ طوني بلير) أو الندم، بعد فوات الأوان، (فرنسا ـ شيراك، نموذجاً بعد حرب الخليج).

٧ ـ الأعداء في كل مكان

ولكي تتم السيطرة والهيمنة، كان لا بد من عسكرة العالم. ولكي يتعسكر العالم لا بد من عدوّ. انتهى زمن كانت فيه ذريعة الحرب الباردة، تؤجج مذهب سباق التسلّح. فالعدو السوفياتي ومن معه، كانوا ذريعة كافية لإطلاق برنامج حرب النجوم، وإنفاق مئات المليارات لإنتاج أسلحة أكثر حداثة وفتكاً وتدميراً وكلفة. هزم هذا العدو وسقط بحرب باردة واحتواء وسباق تسلّح، ولعجز نظامه السياسي عن الخروج من حال الاستنقاع. ولم يعد لأميركا أعداء محدّدون.

العسكرة تحتاج إلى عدو، عندما فقدت الولايات المتحدة هذا العدو الحميم، بحثت عن أعداء آخرين. لا يمكن أن تعيش روما العصر، كما روما القديمة، من دون عدو. روما آنذاك، بعدما أحرقت قرطاجة آخر القلاع المعادية للإمبراطورية، خافت على مصيرها. تريد عدواً. اخترع لها الفيلسوف بوليب عدواً جديداً لم يكن موجوداً أبداً. خافت روما على نفسها من نفسها، تماماً، كالشعور الذي ساد أوروبا بعد سقوط جدار برلين «لم يعد عندنا عدو نخافه. سنخاف من أنفسنا». لم ينته التاريخ، لأن الدراما ما زالت مقيمة في المستقبل. وهم السلام الكانطي سيتبدّد بسرعة، فالأسوأ أمامنا (جان كريستوف روفين «الإمبراطورية والبرابرة الجدد»، ٢٠٠١). وهكذا بعد فترة وجيزة، استعاد العدو وجهه، أو، حضر بوجوهه المتعددة. ثم بات العالم يشهد فترة بعد فترة، ولادة أعداء جدد، حتى امتلأ بالأعداء.

ذهب الدب الروسي، وأحضرت «الذئاب» من كل غاب. ومن

بين الذين حضروا واستحضروا، مراراً، منطقة الشرق الأوسط، الحاضنة لعدد هائل من القضايا المفترسة: فلسطين، النفط، الحركات الأصولية، الإسلام السياسي، الأنظمة الاستبدادية والإرهاب.

VI ـ بؤرة العداء

ولأن الولايات المتحدة قوة عسكرية عظمى، فإن هذه القوة بحاجة إلى ميادين قتال. فالقوة بلا استعمال، تتراخى، تتآكل، تصدأ. وحدها الحروب، يجب ألاّ تضع أوزارها أبداً، لدولة، شبيهة بالولايات المتحدة الأميركية، لأنها تصبح دولة عاطلة من العمل الأساسي، الذي ترتبط به بقية مؤسسات الإنتاج ومصانع العمل والمركبات الاقتصادية ـ العسكرية ـ النفطية.

إذاً، لا بد من عدو.

أنطوني لايك، (١٩٩٦) المستشار لشؤون الأمن القومي في عهد الرئيس بيل كلينتون، يقدّم للأميركيين لائحة المخاطر/ الأعداء: (ألان جوكس، ٢٠٠٣).

١ ـ أعداء السلام في الشرق الأوسط.

٢ ـ العنف المتقادم بين أديان وطوائف وإتنيات.

٣ ـ الدول المارقة.

٤ ـ انتشار أسلحة الدمار الشامل.

٥ ـ الإرهاب.

٦ ـ الجريمة المنظمة.

٧ ــ تجارة المخدرات.

٨ ــ التدمير البيئي.

يحتل الشرق الأوسط في هذه العقيدة الأميركية مرتبة العدو لأنه يحتضن «أعداء السلام»، و«العنف الديني والطائفي»، و«الإرهاب» و«أسلحة الدمار الشامل». والملاحظ، أن هذه العقيدة، لم تشر من قريب أو بعيد إلى الأنظمة الملكية الفاسدة، أو الدكتاتوريات الطاغية، بل أكدت على «العداء للسلام»، الذي يتصل، وفق لايك، اتصالاً وثيقاً بـ«الإرهاب»، و«الدول المارقة».

VII ــ دين أميركا السياسي

كيف تنظر الولايات المتحدة إلى هذه المخاطر، وكيف تعالجها، وما الوسائل التي تعتمدها، لاستبعادها أو إزالتها؟

العقيدة الجديدة التي تبنتها الولايات المتحدة بمثابة دين سياسي لها، تستمد عناوينها، من خلال تنوّع وتعدّد وكثرة تجاربها العسكرية في العالم، إلى جانب «علب الأفكار» التي تبرّعت برسم سياسات متشددة، كان أبرز منتجيها المحافظون الجدد. وتلتقي هذه السياسات الجديدة مع سابقاتها، من حيث توفير القدرة العسكرية الهائلة والساحقة، والأهداف التي تصوّب باتجاهها. ركائز انطلاق هذه القدرة:

أولاً: القومية الأميركية، وهي قومية ما فوق القوميات الأخرى. تتميز بالتصلّب والتوحّد والتفوّق. وهي في عزلتها على ذاتها ومصالحها، أكثر انتشاراً وتوسّعاً وهيمنة، من قوميات كولونيالية

كلاسيكية. وتلتقي القومية الأميركية المتصلبة مع وسائل متعددة مرتبطة أساساً بالمصالح الأميركية، العليا والدنيا، والكسب التجاري. وتعبّر هذه القومية المتعالية عن نفسها بلغة مصالح أميركا وأمنها، وضمانة ذلك على المستوى العالمي، بالقوة العسكرية. وتغلف ذلك كله بعدد من الشعارات الهادفة إلى تحديث الشعوب والدول المتخلفة والنامية.

ثانياً: الأخلاق في خدمة السياسة، والقيم في خدمة المصالح، والشعارات في خدمة السوق والمنفعة. وما استعمال شعار نشر الديموقراطية إلاّ ذريعة جديدة لتعميم الفوضى «البناءة». وقد تفوّقت الإدارة الجديدة في واشنطن على كل العقائد التوتاليتارية، التي حاولت فرض الاشتراكية خارج أراضيها بالدعاية والتدخل، في محاولة فرض «ديموقراطيتها» على العالم بالقوة. ويخيل للبعض أن هذه الدعوة ناصعة وأعداء الديموقراطية هم الذين يستهترون بدماء شعوبهم عندما يمانعون استيراد الديموقراطية.

ثالثاً: اعتماد دبلوماسية القوة العسكرية في السياسة الخارجية (تشومسكي ٢٠٠١)، ويلزم تطبيق الشعارات والأهداف بالقوة، أي معالجة المشكلات الدولية، المنتقاة أميركياً، بمعزل عن أسبابها، معتبرة أن المشكلات ذات طبيعة خاصة ذاتية، يفترض حلّها بالأمن، وفق نص وصفة وحيدة: العنف. علاج العالم يكون بالصدمات الأمنية، مروراً بالعقوبات الاقتصادية، الحصار المتدرج، الاحتواء. ويفضّل المحافظون الجدد استعمال القوة أولاً، من دون العبور بتراتبية العقوبات وتدرّجها. كما يفضّلون الانتصارات الكاملة والكاسحة والنهائية. (من هنا موقفهم السلبي من جورج بوش الأب الذي لم ينجز الانتصار الكامل في العراق، ولم يزحف

على بغداد، لإطاحة صدام حسين). فالقيم الديموقراطية، وتعميم ثقافتها، ليست سابقة على الحرب العسكرية، أو التدخل الأمني، بل لاحقة له. هزيمة العدو النهائية توفّر الأرضية الصالحة لنشوء أنظمة ديموقراطية موالية لواشنطن. «دمّر ثم عمّر. اقتل ثم انقل. انقل الديموقراطية بكلفة دموية مستدامة».

رابعاً: اعتماد القوة وسيلة تجعل من البنتاغون المكان الطبيعي لرسم السياسات الخارجية الأميركية. فالعسكر يرسمون خريطة الطريق الدبلوماسية لوزارة الخارجية الأميركية. والحرب الوقائية عقيدة للعسكريتاريا الأميركية وفريق الأنتلجنسيا فيها، وليس الوقاية من الحرب، التي تقع أحياناً كثيرة على عاتق الدبلوماسية. يرى كين أدلمان أحد المقربين في ولاية الرئيس رونالد ريغن، ثم أحد صقور إدارة جورج دبليو بوش أنه «لا يوجد حلّ نهائي لمشاكل العالم، فما من مشروع سلام في الشرق الأوسط يمكن أن ينهي النزاع الذي ضرب هذه المنطقة منذ عهد يسوع المسيح، وحتى قبل ذلك، وما من حل سياسي أو دبلوماسي أو حتى عسكري يمكن أن يضع حداً للنزاع العرقي في جنوب أفريقيا. وليس باستطاعة أي تصويت في الأمم المتحدة أن يضمن الحرية الفردية أو السيادة الوطنية، وليس بوسع أي مساعدة أميركية، مهما بلغ حجمها، أن تؤمّن الازدهار في بلدان العالم الثالث، وما من اتفاقية رقابة على التسلح يمكن أن تؤدي إلى السلام» (غسان سلامة ـ **أميركا والعالم، إغراء القوة ومداها**، ٢٠٠٥)، وعليه، فإن السياسة ملحقة بالترسانة العسكرية وأدواتها وأجهزة تخطيطها وحروبها المستدامة.

خامساً: في ضوء هذه القاعدة، تتقلص الرغبة في الاعتماد على المؤسسات الدولية، ويزداد الجموح للتخلي عنها عبر شن هجوم

عليها، واتهامها بالعجز والتخلف، وعدم قدرتها على مواجهة التحديات. ويتيح هذا التخلي الصدامي عن مجلس الأمن (حرب العراق نموذجاً) واحتقار قرارات الجمعية العامة وتهميش المنظمات الإقليمية ومحاصرة أي قطبية مستقبلية، حقلاً واسعاً بل غير محدود، من حرية الحركة والتصرف، بمنطق إمبراطوري صرف: هكذا نريد، وهكذا سيكون.

سادساً: إزاء هذا التراجع للمنظمات الدولية، وتوظيفها عندما تدعو الحاجة، تفقد الدول المغلوبة على أمرها فرصة الشكوى، وإمكانية إنصاف نسبي لقضاياها. مفاتيح المنظمات والمؤسسات الدولية في الزنار الأميركي، ولا يفتح هذا الباب، لأيّ دولة، إلا إذا قدّمت ولاءها ونفذت شروط الطاعة للولايات المتحدة، ونالت رضى إسرائيل.

هذا السلوك ليس جديداً، هو أصيل في السياسة الأميركية، فقد ركلت واشنطن بأقدامها مراراً، قرارات إدانة، وانسحبت من اتفاقيات مبرمة، وامتنعت عن واجبات نصّت عليها الشرعة الدولية، والقوانين الراعية للسياسات الدولية. سجلّ الولايات المتحدة الأميركية خلال قرن من الزمن، يكاد يكون سجلّ المروق الدائم. (خروج من بروتوكول كيوتو، التراجع عن اتفاق تقليص ونزع الأسلحة البالستية، عدم الموافقة على الخضوع لمحكمة العدل الدولية، نقض بروتوكول حول السلاح البيولوجي، نقض الاتفاق حول منع الأسلحة النووية، نقض اتفاقيات جنيف حول السجناء في الحرب (غوانتنامو) وحرب العراق و...).

سابعاً: من علامات التغير العالمي جذرياً، بلوغ التفوق العسكري

الأميركي مرتبة لا تضاهى. فالفجوة بين ما هي عليه اليوم، وبين الدول الصناعية الأخرى، المنافسة لها، تبدو كبيرة جداً، وتعجز الدول الصناعية المنافسة، عن اللحاق بها، ولو سعت، لمدة عقود قادمة. فلها سيادة الجوّ الكاملة، وترسانتها الجوية تفوق كل الترسانات العسكرية. بلغت بها «المغامرة العسكرية» إلى عسكرة الفضاءين: الأرضي والخارجي. (٢٢٥٠ طائرة سوبر حديثة، عشرات طائرات الأواكس). وتنتشر قواتها البرية في القارات الخمس، عبر قواعد عسكرية، في أكثر المناطق حساسية، وقد ازدادت انتشاراً، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، في مناطق الخليج والدول المحيطة بروسيا، وقلب آسيا الوسطى. ولدى الولايات المتحدة الأميركية أكثر من مئة قمر صناعي للخدمات العسكرية، وأسلحة دمار شامل، وتفوّق بحري في كل المحيطات.

وبرغم هذا التفوق، لم تتوقف آلية الإنتاج العسكري المتسارعة، وأضحى «التجمع العسكري ـ الصناعي، أقوى من أي وقت مضى في الكونغرس»، (سلامة، ٢٠٠٥). إذ ليس مسموحاً لأي دولة أن تبلغ مرتبة الولايات المتحدة. السهر على الفجوة ضرورة استراتيجية. ممنوع على الأصدقاء والأعداء، ربح معركة التفوق العسكري.

هذا التفوق فرضته طبيعة النظام الأميركي وتحولاته باتجاه السيطرة الإمبراطورية، ومنع أي منافسة، ولمواجهة أي تهديد محتمل، أو أي عدو يظهر، أو لحل أيّ مشكلة تقتضي التدخل، وتقع هذه النظرة في أساس الحروب الوقائية.

ثامناً: تفرّدت الولايات المتحدة الأميركية بوضع قواعد سلوك

سياسية بين الدول المشتبكة سياسياً أو عسكرياً. نصّبت نفسها شرطياً دولياً، ومحكمة دولية، وغرفة عمليات دولية، وغرفة تدخل عسكري ودبلوماسي وقاضي تحقيق، وقاضياً يصدر الأحكام وينفذها. على أن صفة الدولية، لا تعني إشراك القوى الدولية، ذات الثقل في قراراتها، بل هذه الصفة، متأتية من تدخل أميركا في كل القضايا الناشئة بين الدول. وقد فرضت على كل دولة أن تهتم بشؤونها الداخلية، وتخلي الساحة للمشاكل البينية لعبقرية الحلول الأميركية.

فأي خلاف يطرأ، أو يستعاد، بين دولتين جارتين، يعطي الولايات المتحدة الحق في فض النزاع وفق ما تقتضيه مصالحها. وقد ثبتت هذه القاعدة، بعدما تم الزواج الدائم، بين العولمة وضرورة حراستها، مهما كلّف الأمر، وبالقوة الساحقة. «الدور الحقيقي والواقعي للقوى الأميركية العسكرية هو حفظ الأمن العالمي وتأمين الظروف الملائمة والدائمة والأكيدة للاقتصاد الأميركي، وبلوغ مدى مفتوح لديناميتنا الثقافية، (أي أن تعميم الماكدونالد، بحاجة دائمة إلى حراسته من قوى الماك دوغلاس (إنتاج الأسلحة والطائرات) ولبلوغ هذه المرتبة، سنقوم بعدد كبير من المجازر» (رالف بيترز ـ ١٩٩٧).

إخضاع العالم للشرطية الأميركية، عبر حراسة العولمة الشرسة من أحقاد البرابرة الجدد. وهؤلاء البرابرة الجدد، (أي نحن)، لا أسباب لديهم للوقوف ضد الولايات المتحدة الأميركية، سوى أنهم مصابون بعقدة الكراهية ومركّب الحنق. لا تعترف الإدارة الأميركية بأسباب تاريخية، أو بظلم سابق، أو بفقر مدقع، أو مجاعات محدقة أو احتلال مزمن، أو بسبب عنف العسكريتاريا

الأميركية... إن عنف هؤلاء البرابرة غير مبرّر، فهو عنف مرضي. (آلان جوكس، **إمبراطورية الفوضى**، ٢٠٠٢).

تاسعاً: وبناء على ما تقدّم، ستكون مهمة الإدارة الأميركية، الحفاظ على اللاتوازن الدولي، وعلى التنافس غير المتكافئ، وعلى منطق القوة الذي يخلق حقائق ميدانية، لا على منطق الحقوق الدولية، التي أوكل أمر حمايتها للقانون الدولي، والمؤسسات الدولية، الناظمة للعلاقات بين الدول، (نعوم تشومسكي، عن جورج كينان، ١٩٤٠). فقدان التوازن هذا، هو محصلة احتكار الثروة العالمية من دولة تمثل سكانياً أقلية إزاء مجموع ستة مليارات بشري. وهو محصلة دول فقيرة تنوء بديونها الباهظة، وفقرها، وانعدام فرص النمو. وهو محصلة دول، منتشرة في أحزمة البؤس، حيث يموت الأطفال إمّا جوعاً أو مرضاً أو بسبب سوء التغذية. مهمة أميركا ليست أمركة العالم، بل توظيف الآخرين في خدمة أميركا الأميركية. أميركا التي هي أولاً، وفوق الجميع، فاشية بثياب ديموقراطية، فاشية من طراز مخملي ودموي في آن.

يتطلب انعدام التوازن المستدام، تدعيماً أخلاقياً وتعميماً لمنظومة من القيم والشعارات والأهداف السامية والغايات النبيلة، كي لا يكشف انعدام التوازن واقع السيطرة والنفوذ والإلحاق، ووقائع القبض على سلطة القرارات المالية والاقتصادية والسياسية والأمنية، في «الدول الزبائن» البائسة، الملحقة بها، بقسرية تمارسها طبقة حاكمة مضادة لمصالح شعوبها. الغطاء الأخلاقي ضروري لإكساب الحروب صفة العدالة، وإعطائها مهمة التبليغ والتبشير والتنفيذ.

«الديموقراطية»، «العدالة»، «المساواة»، «التنمية»، «الحرية»، «محاربة

الفقر»، تفضي عموماً إلى ممارسة نقيضها بالتمام. فالديموقراطية تتحول إلى «ديموكتاتورية» وفي الجزيرة العربية تصير «بَذْوقراطية». والعدالة تصبح ظلماً جافاً، والمساواة تقع في بؤس التفاوت المريع، والنمو يشرع للسرقة والهدر، والحرية تطوّب الاستبداد، ومحاربة الفقر والمرض تفضي إلى احتكار الدواء والغذاء.

في الإمبراطورية الأميركية الجديدة، تسهر سلطة المركز على حراسة التفوق وفقدان التوازن وانتظام الفروقات، بحيث يختصر المشهد الدولي خارج منظومة الدول الغنية والصناعية والدول الفضفاضة بالنفط، بـ«جحيم يزداد جحيماً»، يبث عذاباته عنفاً وحقداً وكراهية، أو يتحطم قبولاً وإحباطاً وقدرية مازوشية.

في مواجهة هذا التحدي العالمي، كيف تحافظ الدول المستضعفة على لقمة عيشها وبُلغة رمقها، وكسرة كرامتها، وحفنة حريتها؟

عاشراً: بعد الحادي عشر من أيلول، حدث انعطاف، ولم تحدث قطيعة (بيان الكتاب الأميركيين ـ ٢٠٠٢). ما كان قد تأسس في مستويات الفكر السياسي الجديد، الذي بثّه المحافظون الجدد، تحوّل إلى برنامج عمل، للتنفيذ بسرعة. انتقل الفكر إلى الجبهة. الأقلام استبدلت بالأسلحة. إن العالم سيكتب ويصاغ وفق استراتيجيات العسكرية الأميركية.

وضعت لائحة من الأهداف، واستعدّت الإمبراطورية لحقل الرماية، بجدارة السلاح، وعقيدة التفوق، موظفة جراح الأميركيين الذين سقطوا في البرجين في نيويورك وفي البنتاغون، وآلامهم، يضاف إلى ذلك رغبة الأميركيين بالثأر من الأعداء، كيفما كان، وأينما كان.

VIII ـ حقول للرماية

حدّد الرئيس بوش الهدف: «الحرب على الإرهاب» و«الدول الداعمة للإرهاب». وطالب الدول والجماعات بحسم قرارها: «إمّا مع أميركا وإمّا مع الإرهاب». واستبق كل تدقيق، معتمداً على تقرير وزارة الخارجية الأميركية (٢٠ أيلول ٢٠٠١)، وصوّب اتهامه باتجاه: كوريا الشمالية، كوبا، إيران، العراق، ليبيا، السودان، سورية.

اللافت أن التقرير لم يشر إلى أفغانستان، لأن الرغبة كانت منصبّة قبل اعتداءات ١١ أيلول، على غزو العراق. ومع ذلك، فقد بدأت الحرب ضد الإرهاب على:

ـ أفغانستان أولاً، حيث تقيم «القاعدة» وبن لادن في حضن نظام الطالبان. (لا ضرورة للتذكير بأن بريجنسكي تحدث عن تسليح الجماعات الإسلامية المتطرفة، وعن تدريبها، قبل اجتياح السوفيات أفغانستان. الأميركيون سبقوا السوفيات إلى هناك، بذكاء، اعتمد على غباء «المجاهدين» الذين وجدوا لهم وظيفة «إلهية» في خدمة «الشيطان الأكبر» المتمثل بالولايات المتحدة الأميركية). واجتاحت أفغانستان انتقاماً، وبن لادن ما زال حياً يرزق مع تنظيمه.

ـ العراق ثانياً: احتاجت واشنطن إلى أسباب ملزمة لحربها وواجبة لحركة جيوشها. وجدت ذرائع: أسلحة دمار شامل (لم يجدوها). برامج للتسلح النووي (لم يكتشفوها). علاقات وثيقة للنظام مع «القاعدة»، (دليلهم مشاهدة «قاعدي» في بغداد وإحدى عواصم أوروبا)... دكتاتورية جلفة واستبداد مزمن (واشنطن دعمت نظام

صدام في مواجهة إيران).

دمّرت الجيوش الأميركية البريطانية العراق. دمّرت مؤسساته، فتكت ببناه كلها. صار لا دولة، وهو ينزف يومياً أكثر من ١٠٠ جثة. ومعسكرات الاعتقال تفوقت على سجون صدام، ووحدة العراق استبدلت بمشاريع شيعية ـ سنية ـ كردية (ويبدو أن المشروع الكردي كان أكثر حضوراً وجهوزية).

ـ الإرهاب دائماً، متمثلاً بأحزاب وحركات. والإرهاب، أميركياً، اعتباطي. هي ضد الإرهاب القبيح متمثلاً بحزب الله وحماس والجبهة الشعبية ـ القيادة العامة والجهاد الإسلامي، وحددت أميركا الداعمين لهذه التنظيمات: إيران وسورية. والحرب التي خاضتها إسرائيل/ أميركا، هي لضرب «الإرهاب» في لبنان، بعدما تخصصت إسرائيل وحدها، بدعم أميركي، بتصفية الانتفاضة.

بعض دول هذه المنطقة وشعوبها وحركاتها كانت في مرمى النار والعدوان الإسرائيلي الأميركي... فهل كان المطلوب أن تستسلم قبل الطلقة الأولى، كما اختارت بعض الأنظمة العربية، التي سقطت بالضربات الدبلوماسية اللينة.

أضافت الولايات المتحدة بعد ١١ أيلول، الأنظمة الاستبدادية العربية، إلى قائمة الدول التي كانت من مسببات إنتاج الإرهاب: السعودية ومصر، خصوصاً أن «الإرهاب الأصولي»، كما تبين للأميركيين، هو نتاج الحركة الوهابية في السعودية، وامتداداتها في مصر، بعد انتصار النفط وشحنه مع الوهابية، عبر الدعاة المصريين.

سقطت هذه الأنظمة بسرعة. تحوّلت إلى تبعية كاملة خوفاً من عقاب، بعدما بلغ تبرير المحافظين الجدد، لضرورة تغيير هذه الأنظمة مبلغاً خطيراً جداً. «قضت أميركا على الشيوعية بالحرب الباردة، ولا يمكن مجابهة الإسلام إلا بالحديد والنار». وروّج برنار لويس وبول ولفوفيتز لمقولة أخرى: «الخلل في الأنظمة الإسلامية، ناتج من خلل في تراث المسلمين، فلديهم شعور بالدونية والإحباط والحنق والكراهية، ومجمل معتقداتهم لا عقلانية» (سلامة ٢٠٠٥).

وقد تم تقليم لغة ومواقف هذه الدول، فاصطفت في معسكر الاعتدال، بمباركة أميركية ودعم إسرائيلي. فالاعتدال، في سياسة العرب، هو تبني سياسة السلامة والتعريض بأعمال المقاومة. الاعتدال العربي انتقال إلى الضفة الأميركية الإسرائيلية، تمهيداً لإعلان الحرب المقدسة على «الإرهاب العربي» والنووي الإيراني. وهذا يقتضي أولاً إصدار عفو عن إسرائيل مع اعتذار غير علني منها، لعدم القدرة على الإفصاح.

باختصار:

الشرق الأوسط، حقل تجارب سياسية، وحقل رماية أميركي. إيران وسورية، بعد العراق وأفغانستان، في مرمى العدوان الأميركي. إيران تلاحقها تبعات البرنامج النووي، ودعمها لحركات المقاومة في لبنان وفلسطين. وسورية تلاحقها تبعات شبهة اغتيال الرئيس رفيق الحريري ودعمها لحركات المقاومة في فلسطين ولبنان.

أما الدول العربية الهلامية، فقد اختارت، بعد سنوات الكفّارة من جهة والغفران الأميركي المشروط من جهة أخرى، أن تقف

بالكامل على الرصيف الأميركي كلياً، ومتفرعاته الإسرائيلية، عندما تدعو الحاجة.

IX ـ عولمة القبول والرفض

فما علاقة المقاومة بكل هذه المقدمات؟ ما مستقبلها، بعدما تفرّغت الجيوش العربية لوظائفها القديمة: حراسة النظام، وحراسة أرباب النظام. هل بالإمكان مواجهة القوة الأميركية العاتية بقوى غير متوازنة؟ أليس هناك طريق أقل خطورة، أم على الدول المستضعفة أن ترضى برتبة الدول المغلوبة، فتسلم أمر قيادتها، ومعالم هويتها، وعافية مصالحها، وخصوصية ثقافتها ورفعة كرامتها، لدولة عدوانية تمارس القتال وسيلة للسيطرة والنهب والإلحاق الأعمى، بهدف تأمين مصالح طغمة مالية متوحشة، ومؤسسات عملاقة عابرة للقارات والدول، ممسكة بالسياسة والعسكر والسلعة وحبة الدواء؟ هل السلامة غنيمة، في وقت تمارس فيه أوسع حرب إبادة كونية على البشر والبيئة والثقافة والحضارة؟ (جان زيغلر ٢٠٠٢).

أليس هناك، في مواجهة هذا الطاغوت الإمبراطوري، إمكانية تفاؤل لرسم صورة عالم جديد، وعولمة إنسانية، توزّع الغنى والبحبوحة، بدل تعميم الفقر والحرمان والظلم والإهمال والتخلي، وتذخير الشعوب المغلوبة، بالعنف الذي يتحوّل من لغة تعبّر عن حاجات، إلى لغة إرهابية ذات أبعاد خطيرة، في عالم يزداد الخطر فيه، لانعدام الحق والمساواة وتكافؤ الفرص، ولانعدام الأمن أيضاً.

بالإمكان تحطيم حلقة عولمة الاضطهاد وعولمة الرعب (يوسف

الأشقر ٢٠٠٢). هذا ما سنشرحه فيما بعد. بالإمكان استعادة فلسطين ووضعها في مكانها السياسي والحقوقي والنضالي والإنساني، وإعادة رسم المشهد العربي، من خلال استحضار عوامل القوة، بكل عناصرها، المادية والروحية، وتوظيفها في استراتيجية مقاومة، تنتزع الحقوق المهضومة، وتحافظ على الحقوق الوطنية والقومية، وتحرس مصالح الشعب وتنقله من مقام الضعف إلى منصة المواجهة.

نواة المقاومة متوفرة في بعض الحركات، ولدى بعض النخب، وعند جماهير عربية، تواقة إلى التغيير، عاجزة عن صياغة توقها برنامجاً سياسياً طويل النفس.

X ـ حصة إسرائيل من ١١ أيلول

استحوذت إسرائيل، على هدية ١١ أيلول الدامية، ولم تعد بحاجة إلى استئذان أحد، أو إقناع أحد، بأن حربها على فلسطين، سلطة وشعباً ومقاومة، هي جزء أساس من «الحرب العالمية على الإرهاب».

لم تكن إسرائيل، قبل الحادي عشر من أيلول، ضحية اعتداء إرهابي، لكنها اتخذت لنفسها صورة الضحية النموذجية، وأطلقت العنان لجيشها، لإنهاء القضية الفلسطينية، عبر استكمال حرب العام ١٩٤٨، كما أعلن أرييل شارون.

وكالولايات المتحدة الأميركية، لم يكن اعتداء ١١ أيلول قطيعة. هكذا إسرائيل، فقد كانت قبل الاعتداء على نيويورك، في جهوزية سياسية عسكرية، لإتمام دفن أوسلو، وعرقلة خريطة الطريق،

والعودة بالموضوع الفلسطيني إلى منصة الإرهاب.

تكفلت الولايات المتحدة إسقاط دولتين: أفغانستان والعراق، وتكفلت إسرائيل إسقاط برجين: المقاومة في فلسطين، والمقاومة في لبنان. (الملاحظ والمؤكد، أن الجيش في العراق وأفغانستان سقطا سقوطاً مبرماً. أما المقاومة في فلسطين، والمقاومة في لبنان، فما زالتا حيتين تُزرقان في وطنيهما. وهذا أمر له شأن كبير عند النظرة التحليلية والمقارنة).

كيف تصرّفت إسرائيل؟

تأسرلت الولايات المتحدة الأميركية، بالعقيدة والفكر وبالوسائل كذلك. (لودفيك واتزال، ٢٠٠٤). تزوج برجا التجارة الدولية مع الهولوكوست. الخير الأميركي هو خير لإسرائيل، والشر لإسرائيل هو شر لأميركا. توأماة نموذجية. من يجرؤ من الإسرائيليين على نقد أرييل شارون يحاسب كلاساميّ ولا عنصري. ومن يجرؤ على نقد السياسة الأميركية في محاربة الإرهاب، هو إرهابي، يجب إعلان خيانته. هو أميركي شرير، ومعادٍ لأميركا. لقد خرج ماكارثي من قبره. (لودفيك واتزال).

أكثر من ذلك، بات المطلوب من أميركا أن تتعلم من إسرائيل، وأن تستفيد من خبراتها السياسية والعسكرية.

المحافظون الجدد أمثال ريتشارد بيرل ودوغلاس فايث وجيمس كولبرت وروبرت لوينبرغ ودايفيد وورمسر حملوا بعد ١١ أيلول إلى الولايات المتحدة مشروعاً أعدّته مؤسسة استراتيجية سياسية من القدس (IASPS) تحدد كيفية التعامل مع دول المنطقة ومنظماتها.

كانت هذه المؤسسة قد أنشئت لتقديم دراساتها إلى رئاسة الوزراء في إسرائيل فقط لا غير. من هذه المؤسسة استقت واشنطن وتعلّمت:

أولاً: تحييد سورية كلياً عبر الضغط عليها، بسبب أسلحة الدمار الشامل. والانتهاء كلياً من مقولة الأرض مقابل السلام، وتوديع الجولان إلى الأبد، (بيرل من أكثر المتحمسين لهذه السياسة).

ثانياً: تحريك المعارضة اللبنانية للتخفيف من حجم الحضور والفاعلية السورية في لبنان.

ثالثاً: إقامة ما يشبه الحلف بين إسرائيل والأردن وتركيا، وتحريك القبائل والإتنيات في سورية.

عصبة المحافظين الجدد، (أبرامز، أرميتاج، بولتون، كاغان، خليل زاده، كريستول، بيرل، رامسفيلد، ولفوفيتز وولسي...) كانت قد دفعت برسالة نداء، إلى بيل كلينتون عام ١٩٩٨ تحثه على التخلص من نظام صدام حسين واحتلال العراق، كما كانت قد أقنعت بنيامين نتنياهو بالقضاء على اتفاقات أوسلو نهائياً، والعبور إلى ضفة المواجهة مع الفلسطينيين.

وهكذا اتحدت السياستان بشكل متطابق تقريباً: «لكم أسامة بن لادن في أفغانستان، ولنا أسامة آخر في فلسطين يدعى أبو عمار». تم اعتقاله في مقر إقامته، على مرأى من العالم الحرّ الديموقراطي، وعلى مرأى ومسمع أنظمة التخلي العربية، الرابضة على عروشها بأقفيتها، والمقيمة على جباهها أمام العدو. وحدث التطابق مع أميركا أيضاً في: «لكم القاعدة ولنا الانتفاضة. لكم إرهابكم ولنا

إرهابنا». وانقضّت إسرائيل على الضفة الغربية احتلالاً يليه احتلال. ففيما كانت أميركا تدمّر أفغانستان والعراق، وتزيل معالم الدولتين، قامت إسرائيل، بتدمير وإزالة كل مؤسسات السلطة ورموزها، وعمّمت سياسة الحرب الوقائية والاغتيال الوقائي والإغلاق الوقائي والخنق الوقائي.

غابت الولايات المتحدة عن فلسطين. اللجنة الرباعية في غيبوبة واعية، الدول العربية «المعتدلة» (المستسلمة) في حال جهوزية تامة لخدمة الأغراض الأميركية. وفلسطين متروكة وحدها. أما سورية، فكانت مشغولة بتهمة اغتيال الحريري، وتداعيات انسحابها من لبنان. وإيران مندفعة للدفاع عن حقها بامتلاك الطاقة النووية، وتدعيم القوى المناوئة للسياسة الأميركية.

وأطلقت إسرائيل العنان لسياستها الإعلامية فأظهرت حرب شارون أنها ضد الإرهاب ولصيانة السلام. وهكذا صار شارون رجل سلام. ليستقبل في فرنسا كفاتح وبطل. أوروبا تفرش له السجاد الأحمر. يقف بوش على يمينه. يقتنع منه، ويطالبه بالمزيد من التشدّد.

أطلقت على الفلسطينيين حروب إعلامية على خلفيات ثقافية وفكرية معادية، تماماً كما حصل مع العرب، على مرّ تاريخهم، عندما كانوا في مواجهة مع الغرب الأميركي وحلفائه. جرى توظيف الإعلام وتسخيره لتشويه صورة الفلسطيني، وإلقاء تبعة الإرهاب على نضاله.

XI ـ عبقرية التشويه

عندما فشلت محادثات كامب ديفيد، قررت إسرائيل والولايات

المتحدة الأميركية إلقاء تبعات الفشل على أبو عمار. لم يكن اتفاق الليل الفائت على نهاية المفاوضات على هذا المخرج. استفاق الوفد الفلسطيني على حملة إعلامية تقودها وسائط الإعلام الغربية، متهمة فيها أبا عمار برفض «العرض السخي»، (**الحلم المكسور** ـ شارل أندرلان، ٢٠٠٢). لم تُجْدِ اتصالات الوفد الفلسطيني في تصويب الحملة الإعلامية. كان حكم الإعدام قد صدر عن كلينتون وباراك. قضي الأمر كلياً. الإسرائيلي ينفي وجود شريك لصناعة السلام.

حاول أبو عمار، قبيل ساعات، في عشاء أقيم على شرفه في مكان إقامة إيهود باراك، ثني الأخير عن السماح لشارون بزيارة المسجد الأقصى. لم يفلح. حاول ابن شارون أن يمنع والده خوفاً من عواقب الزيارة. حاولت الشرطة والشين بيت وضع عراقيل، لمعرفتهم بما ستؤول إليه من صدامات... ومع ذلك، تحدى شارون الجميع، وانفجرت الانتفاضة. إلا أن الإعلام الأميركي والإسرائيلي ركّز على أن الانتفاضة تفجرت بناء على قرار اتخذه أبو عمار، وعليه فهو يستحق العقوبة، وتستحق فلسطين النبذ. إننا ذاهبون إلى الضفة الغربية وقطاع غزة مرة أخرى. (شارل أندرلان)، و(آموس هارل وآفي أيزاشارون في كتاب: **حرب إسرائيل السابعة ٢٠٠٤**).

قاد الإعلام الأميركي والصهيوني وفروعه الأوروبية، حملة اتهام ساحقة على السلطة الفلسطينية «الكاذبة والمراوغة»، والطامحة لتحرير كل فلسطين لا لإقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل، إضافة إلى تهمة تفجير الانتفاضة، بهدف قتل أوسلو. وقد نجحت هذه الحملة فقضت على أبو عمار.

أنهى شارون، وقبله باراك، سبع سنوات «عجاف» من التفاوض. صاحبتها مصادرة أراض (لا شيء تغيّر في سلوك إسرائيل تنفيذاً لبنود أوسلو) «استمرت عملية إقامة المستعمرات واستيراد المستوطنين من يهود العالم، وتقديم إغراءات للإسرائيليين أنفسهم من أجل السكن في المناطق المحتلة وفرض تهويدها كأمر واقع في ظل مفاوضات «سلام». كما استمرت أعمال الملاحقة والاعتقال والتدمير ونهب الموارد الطبيعية وتسخير قوة العمل الفلسطيني واقتصاده في خدمة استكمال بناء المشروع الصهيوني والدولة اليهودية على كامل التراب الفلسطيني».

«وبنى شارون ما بدأه باراك إعلامياً: «الفلسطينيون لا يريدون دولة في الضفة وغزة إنما يريدون كل فلسطين، ليس هناك شريك فلسطيني مفاوض. إسرائيل تخوض صراع وجود» (محمود سويد. الدراسات الفلسطينية، خريف ٢٠٠٢).

شكلت اعتداءات ١١ أيلول فرصة مثالية لتوحيد معركته على الفلسطينيين، بمعركة الرئيس بوش على الإرهاب والدول الراعية له. و«قد اتسمت عملية الدمج بسهولة ويسر، فلشارون داخل القيادة الأميركية (آنذاك)، حلفاء ليسوا أقل منه صهيونية ولا أقل منه عداء للفلسطينيين والعرب والمسلمين على حدّ سواء».

والتقت الأهداف البعيدة بين الطرفين كذلك: على إسرائيل أن تحافظ على تفوقها النوعي على الدول العربية مجتمعة، وأن تحول دون حصول أية دولة مواجهة حالية أو محتملة، على سلاح نووي. وفي كل الأحوال، يلزم الاحتفاظ بتحالف استراتيجي مع الولايات المتحدة الأميركية (سويد ٢٠٠٢).

ترجم شارون هذه السياسة يوم ٢٩ آذار ٢٠٠٢. وذلك بعد يوم واحد من إصدار مبادرة السلام العربية في قمة بيروت. فقد اجتاحت قوات الجيش الإسرائيلي الضفة الغربية. احتلت المدن والمناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية.

وكانت الأهداف المعلنة: ١ ـ اجتثاث المقاومة. ٢ ـ إعلان عرفات عدواً واستبدال سلطته بسلطة كرازاي فلسطيني. ٣ ـ إصلاحات أمنية وسياسية واقتصادية. ويشير سويد، إلى أن هذه الأهداف باتت حزمة واحدة من الترتيبات الأمنية الأميركية الإسرائيلية للمنطقة تنسجم مع تغير الحكم في أفغانستان، ومشروع إسقاط صدام في العراق، وإبقاء أبو عمار في الإقامة الجبرية في المقاطعة، تمهيداً لإعادة تشكيل هذه الدول وفق الرغبات الأمنية الإسرائيلية.

وهكذا تحولت قضية الاحتلال إلى قضية محاربة الإرهاب، ومصالح الشعب الفلسطيني هي مطالب شذاذ الأفق. ونامت أوروبا وتستّر العرب وتخوفت الحركات الإسلامية «المعتدلة» من المواجهة خوفاً من إدراجها في لائحة المنظمات الإرهابية.

ارتكبت إسرائيل أفظع الجرائم على الإطلاق. أطلقت العنان لقواها العسكرية. أعادت الاحتلال للقرى والبلدات، مرات تلو مرات. ثم كانت تنسحب من القرى وتخنقها من الخارج.

ومع ذلك، وبرغم كل هذه الفظائع، وبرغم فقدان التوازن المطلق بين القوى، فقد استمرت الانتفاضة، ومارس الشعب الفلسطيني ديموقراطيته تحت الاحتلال والحصار، وأجرى انتخابات رئاسية ثم تشريعية، فازت في الأخيرة، حركة حماس، فخسرت إسرائيل

معركتها. لم تكسر إرادة الفلسطيني. ظل هذا المارد المدمى أقوى من جبروت القوة العسكرية الهائلة.

XII ـ تدمير ثقافي وحروب عسكرية

تعانقت بحميمية مثمرة، إسرائيل وأميركا، بعد ١١ أيلول، فعلى صعيد السياسة كانا إلى الأمام سِر، كل في حقل رمايته، بالتكاتف والتضامن. وعلى صعيد الإعلام مارس الطرفان تعمية إعلامية شاملة على القضية الفلسطينية وتم ربطها بالإرهاب. وقد تأمن ذلك، لأن عقيدة المحافظين الجدد، تقترب من اليمين الصهيوني. والعقيدة أشد تأثيراً من المصلحة ومن وقائع السياسة المتبدلة. العقيدة، لها صدارة الثبات والإقامة الدائمة في القناعات.

من نماذج هذه العقيدة التي بشّر بها المحافظون الجدد، «جنود الفكر» و«علب المشاريع» و«دبابات الخطط»، نختار ما يلي:

ـ تفوق الحضارة المسيحية اليهودية على التخلف الإسلامي والعربي. (ليو شتراوس).

ـ العرب أعجز من أن يؤلفوا حكومات ديموقراطية، هم مختلفون عنا، وعلينا أن نكون عاقلين بالنسبة لما يتوقعونه منّا. فهذه البلاد ستبقى تحت حكم الطغاة الفاسدين. (برنار لويس). أي أن العلة في الطبيعة العربية لا في الظروف الموضوعية والتاريخية. أي أن العلة في الدين الإسلامي، وفي التراث الأدبي والشعبي.

ـ الإسلام ظاهرة قطيعية، أو جماهيرية لا عقلانية. تسيطر عليه

الأحقاد الجارفة. كراهيته تتجدّد، للمسيحيين واليهود. ولذلك فإن على الغرب أن يخاف من الأسلمة. (برنار لويس).

ـ يجب عدم التمييز بين مصالح إسرائيل ومصالح الولايات المتحدة الأميركية.

ـ إسرائيل جزء لا يتجزأ من المشروع الأميركي (دوغلاس فايث).

ـ لذا، لا بد من دفن أوسلو وضم غزة والضفة نهائياً إلى إسرائيل. (من نص ورقة قدمها ريتشارد بيرل إلى نتنياهو).

ـ وضع عملية السلام جانباً ولو أدى ذلك إلى سفك المزيد من الدماء، (بيرل) وقتل مطلب إقامة الدولة الفلسطينية.

ـ يلزم ضرب الإسلام الراديكالي، لا احتواؤه. ولا بد من تغيير الشرق الأوسط لحماية إسرائيل.

ـ لا بد من إضعاف العرب ودعم شارون. أميركا بحاجة إلى عرب ضعفاء جداً، وإلى إسرائيل قوية جداً.

ـ الديموقراطية لا تنتشر بالإقناع والتراضي. يجب إجراؤها عبر عمليات جراحية مؤلمة. الديموقراطية عند العرب، ليست قابلة للتعلم، يلزم فرضها بالقوة، (وقد تم التراجع عن هذه الكذبة في مصر والسعودية، لأن البديل من الاستبداد والفساد، هو الحركات الإسلامية).

هذه شذرات من نصوص كثيرة جداً، شكلت أرضية النظر إلى

المشرق العربي والعالم الإسلامي والأنظمة السياسية، وإلى قضية فلسطين.

معظم المحافظين الجدد يهود وصهاينة، ولا يرونَ حلاً للمشكلة اليهودية في العالم، عبر عملية التفاعل والدمج، لأن مثل هذا التفاعل سينزع هوية اليهودي القومية، حتى إن أكثرهم، ضد الديموقراطية، لأنها تذيب اليهود في العالم. لا بد لليهود من وطن يمارسون فيه هويتهم. وهذا الوطن هو فلسطين.

بعد الحادي عشر من أيلول... أعلنت حرب شاملة على المنطقة بالتقسيط. بعد حرب ثقافية تدميرية، شوّهت العرب والإسلام وألقت عليهم تبعات التعصب والحقد والتخلف والإرهاب. شعوب تستحق أن تلقّن دروساً بالقوة.

إذاً، كيف تواجه هذه الشعوب (أقصد الشعوب بمنظماتها وأحزابها ومؤسساتها) وكيف تواجه الدول، هذه الحرب الأميركية الإسرائيلية الشاملة، الهادفة إلى أسرلة العرب شعوباً، بعدما أسرلت عدداً من الأنظمة؟ وهل من ظروف لنجاح مقاومة محاولات أمركة السياسات العربية، وتحويل هذا المدى الاستراتيجي، إلى ميدان للفوضى الدموية الهدّامة؟

المحاولات الكلاسيكية باءت بالفشل. فماذا عن المحاولات «المضطهدة» التي أثبتت حتى الآن نجاعتها النسبية؟ ماذا عن حروب الأنظمة بجيوشها؟ وحروب الناس (الشعب) بمقاومتها؟ الماضي أثبت فشل الجيوش، والحاضر الراهن أكد نجاح المقاومة. والمستقبل قد يؤكد ذلك أيضاً. فلننتظره قليلاً.

المقاومة بديلاً للجيوش؟

I

تحتل المقاومة في الفكر السياسي مكانة ملتبسة. تتأرجح في التوصيف، بين شرعية تقتنصها، وشبهة إرهاب تُلصق بها. وتقيم في منزلة التشكيك بين معترف بها ومنكر لها.

فما المقاومة بذاتها؟

يعرّف الفكر العسكري الحرب بأنها صراع مسلّح وعنيف بين جماعات منظمة. اختير هذا التعريف بين مئات التعريفات، واعتبر أنه أصفى وأدق وأصدق تعريف. لم يتعرّف على الأسباب، لم يبحث في النتائج، لم يضف إليها حكماً قيمياً. لا هي أخلاقية أو عادلة أو وقائية أو مقدسة أو منبوذة. هي كذلك بذاتها، كآلية، من

آليات الصراع بين قوى منظمة ومتصارعة، على قضية ما.

تدخل المقاومة في هذا التعريف استنتاجاً، لأنها صراع مسلح وعنيف، بين جماعات منظمة (بين دولة وثورة، بين «عصابات» ودولة، بين ميليشيات حزبية وأخرى مثلها). (الحروب الأهلية، ليست حروباً بين جيوش). فالمقاومة عمل حربي في ماهية حركتها وبنيتها. لكنها ليست كذلك في كلاسيكيات الحرب والقوانين الناظمة لها. يمكن تعريف الحرب بذاتها، لكن المقاومة لم تعرف بذاتها، بل بذاتية خاصة بكل فريق من أطراف الصراع، فهي لدى طرف مقاومة مشروعة، ولدى الطرف المعادي، هي إرهاب.

II

يسهل التعرف والتعريف بالجيوش، تعتبر بنية الجيش بدقتها وتنظيمها وأطر العمل فيها، وكأنها مكتملة النصاب، وتحتلّ أرقى مراتب الإدارة والفاعلية والانضباط وممارسة العمل العسكري هجوماً ودفاعاً.

تحفل الكتابات العسكرية في دراسة وإعلاء شأن الجيوش، ورفعها إلى مصاف العلم المتفوق وإلى مكانة الاختصاص المتقدم، واعتبارها قاطرة التقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي، تنقل المجتمع في أيام الاستعداد للحروب المفترضة إلى مواقع متقدمة، تقنياً وعلمياً وصناعياً واجتماعياً، وتترك آثارها البالغة على صيغ التحولات الاجتماعية المحلية والإقليمية والدولية.

ولأن للجيوش مكانة خاصة في العالم المعاصر، ولأن العولمة جزء منها عسكري وأمني، فإن العالم يقترب أكثر فأكثر، من العسكرة

الكاملة. ففي الدول الدكتاتورية، يؤلّف الجيش العمود الفقري للنظام وللمجتمع. وفي الدول المتقدمة والديموقراطية، يؤلّف الجيش عاملاً رئيساً من عوامل ارتفاع مؤشرات البورصة، وقائداً عملانياً للمنتجات السلعية في الأسواق المفتوحة، وحارساً أمنياً، وشريكاً حقيقياً للشركات العملاقة، التي نصبت شبكتها العنكبوتية الدولية وبسطتها فوق الشعوب في أكثر المجتمعات والدول.

نظر الفكر السياسي باستمرار، إلى الجيوش على أنها الركن الأقوى للدولة، أياً كان شكل الدولة. الدولة محتكرة العنف، ووكالة الاحتكار أعطيت للقوى المسلحة. فلا دولة من دون جيش يدافع عنها ويحميها. الجيوش هي الثابت الدائم والمستقر والمؤبد. (باستثناء دولة الفاتيكان).

المقاومة، ينظر إليها من خلال الحاجة المؤقتة إليها. وهي مدار خلاف بين وجهات نظر مختلفة ومتناقضة.

من احتاج إلى المقاومة الشعبية في صراعه العسكري، طالب بإلحاقها بالقوانين الناظمة للجيوش وحركتها. الدولة التي كانت تشعر بضعف في جهوزيتها القتالية عدداً وعديداً، كانت تلحّ إبان المفاوضات الدولية، على اعتبار المقاومة جزءاً لا يتجزأ من حركة الجيوش، ولو كانت مستقلة عنها، ويلزم حمايتها بقوانين الحرب. أما الدول القوية، والتي كانت تتمتع بميزة التفوق العسكري، فكانت ترفض الاعتراف بالمقاومين، وتعتبرهم مخرّبين وإرهابيين، وتعاملهم كمجرمين حقيقيين.

المقاومة عمل حربي، تماماً كالحرب في مفهومها الكلاسيكي، غير

أنه لا يعترف بها كذلك. لذا، ينسُب إليها الطرف المحتاج، قداسة وبطولة، فيما ينظر إليها الطرف الآخر، على أنها تخريب وإجرام.

المقاومة لا تستقر كحالة ثابتة. هي مؤقت مدان، أو مؤقت يقدس. فهل تغيّرت وظيفتها مع تغير العالم بكل موازينه؟

III

اختلفت كل من ألمانيا وفرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في كيفية التعامل مع الأنصار (المقاومة). وإبان المفاوضات الطويلة حدث ما يلي:

أ ـ عندما كانت ألمانيا ضعيفة ومنهكة، وفرنسا متفوقة وقوية، رفضت الأخيرة الاعتراف بحقوق عسكرية للمقاومة الألمانية. وضعتهم في مرتبة المخرّبين.

ب ـ اشتدّ ساعد ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر فرفضت الاعتراف بحقوق الأنصار الفرنسيين، وأصرت على التعامل معهم كإرهابيين، بلا حقوق. تبدّلت موازين القوى، وألحقت المعايير بها. فالمخرّب بات وطنياً مقاوماً، والمقاوم مخرباً.

وعليه، فقد طبقت ألمانيا النازية إبان اجتياحها لفرنسا، نظريتها الخاصة، وعاملت المقاومة الفرنسية بوحشية. عاملت أفرادها كمجرمين.

ج ـ معتقل غوانتنامو يمارس التمييز القديم بين سجناء الحرب وسجناء «الإرهاب».

تمدّن العالم كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية. أنشأ منظمة الأمم المتحدة ومن أهدافها الحفاظ على الأمن والسلام الدوليين. وأخذت هذه المنظمة على عاتقها حل مشكلة التباين في النظر إلى المقاومة. وإبان المناقشات التي دارت في اللجان الخاصة، بعد العام ١٩٧٣، ظهر أن الولايات المتحدة الأميركية، تساندها مجموعة «الدول الديموقراطية» وحلفاؤها، تحاول فرض تعريف للإرهاب على نحو يشمل الكفاح المسلّح لحركات التحرر الوطني المناضلة تحت شعار حق تقرير المصير، المقرّ دولياً، أو ضمن ممارستها العنفية لإزالة الاحتلال والاستعمار، بينما حاولت دول المعسكر الاشتراكي أن تدرج في الإرهاب، أفعال الدولة التي تقمع حركات التحرّر، من خلال عملائها والمرتزقة المأجورين الذين توظفهم لتصفية هذه الحركات.

ويشتد الخلاف بين وجهتي النظر: أميركا (ومن معها) ترى إلى المقاومة إرهاباً، فيما يرى المعسكر المغلوب على أمره، أن الإرهاب هو كل من يحاول القضاء على المقاومة بالقوة.

إذاً: لا تعريف محدداً للمقاومة، سوى أنها حاجة الضعيف في مواجهة الأقوى. هي مسألة خاضعة لموازين القوى غير المتوازنة. يحتاج إليها الضعفاء الذين لا جيوش لديهم، للدفاع عن أرضهم وحقوقهم وحرياتهم وأعراضهم وكراماتهم.

هي قوة عنف تجترحها ميدانياً مجموعة من خارج الأطر الكلاسيكية للقتال. تولد من معارضة مقموعة، أو من احتلال أو من شعوب مظلومة، أو من فئات مضطهدة، وتمارسها مجموعات منظمة خارج أطر الجيوش التي لا تتحرّك إلا بإذن أو قرار من الأجهزة السياسية للدولة.

هي حرب بطريقة أخرى، غير تقليدية. هي نمط من القتال الحربي، يلجأ إليه الضعفاء. تستمد مشروعيتها من مظلوميتها، وتوجّه أسلحتها ضد مجموعات أو دول ترتكب حروباً ظالمة.

على أنه لا بد من استدراك. قد تتحول المقاومة المناهضة للظلم، إلى أداة ظالمة تعسفية، دكتاتورية، فاسدة، بعد بلوغها غاية التحرير وتسلّمها زمام السلطة.

نادرة المقاومات التي حافظت على نقاوة السلاح وطهارة القضية ونظافة السلوك، وشفافية الممارسة، وعفاف السلطة، بعد انتصارها وتحوّلها إلى سلطة. المقاومة الإسلامية في لبنان، تختلف عن غيرها من المقاومات الإسلامية أو الماركسية أو الوطنية أو... التي لم توظف الانتصار في القبض على السلطة أو في إقصاء منافسيها عنها.

IV

ستبقى المقاومة زمناً غير يسير، خارج إطار التفاهم الدولي بشأنها، وخارج الاتفاق على وصف موحّد لها. وقد تبقى خاضعة لازدواجية المعايير الدولية، حيث الحدّ الفاصل بين المقاومة والإرهاب، تصريح دولي، يتهم المقاومة بالإرهاب أو يسبغ عليها «طلائع الحرية»، تماماً، كلقب «الشيطان» الأكبر الذي اعتاد المتخاصمون على إلصاقه بالعدو. فنابليون بونابرت كان الشيطان الأكبر بالنسبة للروس، وهكذا دواليك.

وبناءً على هذه الوضعية، لا بد من النظر إلى المقاومة على أنها مسألة حركية راهناً. هي أداة صراعية في عالم منقسم بين فوضى

النظام العالمي وفوضى العنف المتزايد والمصاحب والمنتشر بأشكال مختلفة في مناطق النزاع المشتعلة في هذا الكوكب.

وبما أن العالم منقسم بين قوي وضعيف، منتصر ومهزوم، مستعمِر ومستعمَر، متقدم ومتخلف، مركز وأطراف، منفتح ومنغلق، مصدّر ومستورد، غني وفقير، إلى آخره، فإن الوسائل المشروعة، هي وسائل الأقوياء والمنتصرين والمستعمرين والأغنياء... فيما الوسائل الممنوعة، هي المقاومة والانتفاضة و... أو أسلحة الضعفاء، والتحريض الإعلامي و...

إن الوسائل المسموحة مقيّدة بخيارات إلزامية يفرضها الأقوياء، إمّا عبر المؤسسات الدولية الخاضعة للأقوياء، أو من خارجها. ويصرّ الأقوياء على صيغة التفاوض وعدم اللجوء إلى القوّة. فالقوة مسموحة فقط للأقوياء، والمقاومة حرام دولي. لذا كان العرب ممنوعين من القوة. محرّم عليهم التفوق. ليس أمامهم إلا طريق الضعفاء: التفاوض.

لم يستطع العرب، في القرن الفائت، أن يحققوا بالتفاوض، إلا الفتات الممنوع عليهم اقتسامه أو توزيعه... فمن بيده الحلّ والربط الدوليان، يسيّر التفاوض، وفق مصالحه المحروسة بقواه العسكرية والمالية والاقتصادية والصناعية والثقافية، ولا يفرط بأي قوة من هذه العناصر المتكاتفة والمتضامنة. فالقوي، في مقام التفاوض، فائز حتماً، و«الويل للضعفاء».

تجربة حكومة فيصل في دمشق نموذجية:

فيصل، المنتصر مع الحلفاء، المؤيد برسائل حسين مكماهون،

المطعون بسايكس ـ بيكو ووعد بلفور، يفاوض الغرب (فرنسا وبريطانيا) محاولاً التحلّل من قوة الجيش العربي الفتي، وعناد ضباطه الوطنيين، وقيادات أحزابه، وقرارات المؤتمر السوري المتشددة، متكئاً على دعم موهوم من بريطانيا، ووعود كاذبة ثبت زيفها، فإذا به يصبح الأمير الطريد، الممنوع من السفر والمتوسل لقاء مذلاً مع فرنسا، ويعامل فيه كخاسر بلا تعويض.

يعود فيصل بفتات غير مقبول، ترفضه القوى السياسية. يفاوض مرّة أخرى فتشترط عليه فرنسا تصفية «المخربين» (المقاومة)، فيتصرف بسرعة، وينفذ التصفية أخوه الأمير علي. ثم تشتد شروط الفرنسيين، فينذرونه بضرورة تسريح الجيش، فيفعل... وتكون النهاية المأساوية، والزلزال الذي أسقط أول دولة عربية مستقلة، حرة، ذات سيادة، إلى الأبد... وما زال العرب يدفعون ثمنها، ويقلدون تلك الحقبة، عسكرياً وتفاوضياً... وقد خرج عن هذا التقليد، تأسيس جديد لمقاومة صارت ثقلاً في المعادلة الإقليمية والدولية.

خطيئة التفاوض بلا أنياب، عقابها انتزاع الأظافر والقلب والحركة.

عندما يتم القضاء على الجيش والمقاومة تجرجر الدبلوماسية وسياسة التفاوض ذيول الخسارة والخيبة. (أوسلو نموذجاً).

كانت تلك الواقعة تأسيساً كارثياً لمعظم الأحداث التي استولدت بعدما تم رسم الشرق الأوسط الحالي، على أطلال الدولة العربية الأولى.

سلسلة المفاوضات أنجبت هزائم، يدفع العرب ثمنها من دمهم وكرامتهم وحقوقهم واقتصادهم وسيادتهم واستقلالهم. سلسلة

المفاوضات أورثت الأمة أعباءً أشد فتكاً من الحروب التي خسرتها.

راهناً، وبعد قرن تقريباً، يعالج العالم قضية المقاومة على أنها شرّ واجب التخلي عنه. فهل يتكرر الخطأ مرة أخرى، وتكون الكارثة الأعظم، فيتم استيلاد «الشرق الأوسط الكبير»، بقيادة الأصيل الإسرائيلي، عن البديل الغربي؟

V

ثمة حاجة إلى تبيان المسموح والممنوع دولياً.

•

تغدق الدول المنتجة والمصدرة للسلاح، الكثير من الأسلحة على الدول الغنية والفقيرة لتجهيز جيوشها، والهدف تجاري أولاً وثانياً وعاشراً، ثم، لاستنزاف الدول الغنية (النفطية طبعاً) وإخضاع الفقيرة، وإيقاعها في مديونية متنامية. فالمسموح هو تجارة السلاح، ليس بهدف الدفاع، بل بهدف تدجين الدول الزبائن وإلزامها بدفع الكلفة الباهظة، لعناد باهظ الزمن، على أن يكون السلاح معقماً وطنياً، وموظفاً فقط في ضبط الأمن الدولي، وفق شروط الاكتساحات الاقتصادية.

فالجيوش، في كثير من دول العالم الثالث المستضعفة وخاصة بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، أصبحت مرتهنة سلاحاً وتدريباً ووظيفة للقرارات السياسية الدولية، واستراتيجيات الدول المسيطرة، والقابضة على المصائر الدولية، التي تحدد طبيعة ومهمات هذا السلاح. وينظر إلى الخبراء العسكريين الأجانب على أنهم أهل اختصاص في السياسة، لا في التدريب فقط. وهكذا، يجري القبض على الزناد السياسي للجيوش، وتصبح غير ذات فاعلية، إلا

عندما تمسّ السلطة بمعارضة من داخل. فالجيوش المرضي عنها دولياً، وتحديداً من الدول الديموقراطية «العريقة»، هي الجيوش التي تحرس الدكتاتوريات، وتمنع الديموقراطية؛ الديموقراطية المرغوبة شعبياً في الدول الزبائن.

ونادراً ما تخوض هذه الجيوش، المتخمة بالأسلحة والنياشين والرتب العالية، حروباً من تلقاء ذاتها. فهي مدعوة إلى أداء مهمّتين فقط: الأولى: الحفاظ على النظام والاستقرار في الدولة المعنية. الثانية: قبول بطاقات الدعوة الدولية، للدخول في أحلاف وحروب وتدريبات ومناورات مشتركة ضد عدو تختاره القوى العظمى... والويل لمن عصا.

فمسموح أن تستدين لدفع فاتورة تجهيز الجيوش في الدول المغلوب على أمرها، ومسموح أن تنفق الفوائض المالية النفطية، لتصبح ترسانة مزدانة بأرقى الآليات والأعتدة، ومسموح أن توظف هذه الجيوش في حفظ الأمن الداخلي، والإمساك بآلة السلطة، والتمسك برقاب الناس، إضافة إلى وظيفتها النموذجية، والقاضية بإعانة الولايات المتحدة الأميركية في حروبها، وإجراء تدريبات مشتركة، بلغت حدّ الطلب والمساهمة بمناورات تشترك فيها، عندنا، إسرائيل.

سقطت حصانة الجيوش بالضربة السياسية القاضية. سقطت سرية عمل الجيوش وباتت مكشوفة، وتقدم تقارير للأجهزة الدولية المعنية. وجاءت أحداث ١١ أيلول، لتكشف أنظمة متكتمة على معلوماتها، فتبرعت بما لدى أجهزتها الأمنية، في الحرب على الإرهاب، خوفاً من العقاب.

إذاً: خرجت الجيوش من كونها أداة قوة ووسيلة حماية، وباتت عبئاً باهظاً على مواطنين يئنّون من الديون والتخلف والقمع والبطالة، ويئنون أكثر من آلة عسكرية تتحوّل بعد سنوات قليلة إلى خردة من حديد صدئ، لا يصلح للرماية، بل للرمي في العراء، كقمامة لا تحتمل.

وإذا توفرت لجيش ما، الإرادة السياسية لمنع العدوان، أو لصيانة قرار ذاتي، فإنها ستتعرض لحظر شحنات الأسلحة. التسلح مسموح للجيوش المستقيلة عن الدفاع عن بلدانها والموظفة من معارك بالأجرة والسخرة. والتسلح ممنوع لمن يتمرّد على الخط الأميركي والدولي. والشواهد كثيرة. فالذي يعطي السلاح ويبيعه، يضع له مواصفات كثيرة، أبرزها: مصادرة الإرادة السياسية.

أليس غريباً والحالة هذه، أن الدول المستضعفة بسبب ضعفها أو استضعافها أو تبنيها سياسة العجز، باختيارها، ما زالت تضحي بالمال النادر، وتتكبد الديون بفوائد متراكمة بسرعة ضوئية، من أجل اقتناء السلاح لتجهيز جيوش عديمة الفاعلية، وغير صالحة للعمل في صد عدوان، أو في تحرير أرض، أو في تحسين مواقع أو في دخول حلف إقليمي نادر الاستقلالية. السخرية، أن الشعوب المقهورة أو المسلوبة أو المضطهدة، تدفع كلفة تسليح جيوش، ليس مسموحاً لها إلا أن تقمعها كأنها تدفع ثمن القبضة التي تطبق عليها، أو، كأنها، تنظّم آلية قمعها، إذا ما تجرأت على رفع قضية الخبز مثلاً.

تكاد تصبح الجيوش في الدول المستضعفة للزينة فقط في حالات السلم، أو للقمع في حالات الاضطراب السياسي والاجتماعي، أو

أنها لحراسة النظام التابع ومصالح الدولة المتبوعة. فماك دونالد يحتاج لاكتساح العالم اقتصادياً، إلى ماكدوغلاس (تصنيع السلاح)، وعلى الشعوب المغلوبة، أن تمتثل لتكون شريكاً مستهلكاً للسلعتين: وجبة الغذاء، ووجبة السلاح التي تحميها.

VI

في المواجهات العسكرية، بين الجيوش الكلاسيكية، تكون الغلبة غالباً للجيوش الأقوى. تاريخ الانتصارات الإسرائيلية مقنع جداً.

فلم الجيوش إذاً:

ألا يجب أن تعاد صياغة جديدة لهذه الآلية المكلفة؟ أليس من الضروري إعادة التفكير بجدوى أجهزة باهظة ومعطلة، بالسياسة أولاً، ومعطلة من حيث تخلّفها تقنياً وارتباطها بمصدر تسليحها الذي يكاد يصير واحداً ووحيداً؟

قيل: الجيوش تصنع السياسة. وهذا غير دقيق. الجيوش القوية القادرة على الحسم، هي التي تصنع السياسة. الجيوش الضعيفة تكون ملحقة بسياسات، تعتمد في خطوطها العريضة، على دبلوماسية الممكن، عبر تبادل المصالح، وتقديم الخدمات والضمانات. فعندما اعترضت فرنسا على سياسة أميركا الأمبراطورية إبان حربها على العراق، طالبتها واشنطن بإرسال جيوشها لحفظ الأمن الدولي. جيوشنا العربية غير قادرة على الحسم. بل بات أمرها محسوماً ضد فاعلية قوتها.

تستبدل القوة المادية راهناً، باللغة الدبلوماسية، وأسلوب الإنشاء

التفاوضي. وتحتاج المفاوضات إلى صداقات وأحلاف من لون واحد ومن معسكر واحد، خصوصاً، بعدما صار العالم أحادي القطبية. فلا ينفع الدول المغلوبة أن تكون صديقة لدولة ما، ولا تكون صديقة أساسية ولو بالإكراه للولايات المتحدة الأميركية. والصداقات مع الولايات المتحدة الأميركية من طرف واحد. فهي صديقة مصالحها فقط. والآخرون ملزمون بالدخول في عقد الصداقة، وفق لائحة الشروط الأميركية، القاضية بأن تسلّم لها، بأنها هي الوحيدة المؤهلة لفض الخلافات بين الدول. غير مسموح لأي دولة أن تحل مشكلاتها مع جيرانها. فهذا الأمر معقود فقط، للولايات المتحدة الأميركية. وتتضمن لائحة الشروط الأميركية تعبئة إضبارة حسن سلوك سياسية في إدارة الشؤون الداخلية لكل دولة، بما يتوافق ومصالح الدول القوية، فما نفع الجيوش إذاً؟

عندما تسقط قوة الممانعة، فإن خير ما تحصل عليه الدول المغلوبة ضمانات حماية، من قسوة البربرية المعادية.

من صمد حتى الآن في وجه هذه الإرادة الدولية؟

أ ــ دول ديموقراطية حقيقية، بلا التباس في ديموقراطيتها، مستندة في مواقفها ومطالبها إلى إرادة شعوبها.

ب ــ مقاومة مسلّحة أثبتت قدرتها على إفشال الإرادات الخارجية الساعية إلى إحلال مصالحها مكان مصالح الشعوب... وما أكثرها.

ج ــ قوى المجتمع المدني، بأحزابها وأنديتها وإعلامها (النادر) ومؤسساتها الدولية ــ المناهضة للتوحش المعولم.

لا تشكل الجيوش في الحالة الدولية الراهنة، خطراً على الاستراتيجيات الدولية الزاحفة عسكرياً وأمنياً واقتصادياً في معظم بقاع الدنيا. الجيوش غير المرغوب فيها دولياً، والممنوعة من ممارسة حقها في التسلّح والتقدّم، هي الجيوش المتهمة حكوماتها وأنظمتها بدعم الإرهاب (المقاومة). ففي لائحة الاتهام الأميركية التي تصدر سنوياً، أسماء لدول معادية لأميركا أو لحلفائها، بسبب ممانعتها للسياسات الأميركية المجحفة. وقد أضيفت إلى هذه الاتهامات القديمة، تهمة السعي لامتلاك الطاقة النووية.

ويظهر من هذا التصنيف العدواني، أن المقصود هو المقاومة لا الجيش بذاته. ذلك أن المقاومة، بكل أشكالها، هي النقيض الفعلي والفعال لاستراتيجيات الهيمنة، وقوى الظلم والاحتلال والاستتباع.

المقاومة تحظى بهذا العداء، بحكم طبيعة منشئها وعقيدتها وجذريتها وخطورتها الميدانية، على القوى العسكرية الكلاسيكية. غالباً ما تكون أشد صلابة من أجهزة الدولة ـ ولو كانت ممانعة ـ في ممانعتها. فالدول الضعيفة مكشوفة، وتخضع لظروف قاهرة، وتعيش في نظام دولي، هي جزء منه، لكنها الجزء الضعيف جداً.

VII

ينقسم العالم راهناً، بين أقوياء يتوزعون مناطق النفوذ، ويقيمون توازنهم الاستراتيجي على قاعدة الاستئثار بالحصص، وبين ضعفاء جداً، وملحقين بأوامر المؤسسات الدولية. وتشكل المناطق الضعيفة جداً، في نظر الاستراتيجيات الغربية نقاط تهديد إرهابي للدول القوية... جداً.

فهل هذا صحيح؟

بعد سقوط الثنائية القطبية، بحثت مراكز الفكر الاستراتيجي في الولايات المتحدة الأميركية عن عدو جديد، فوجدته في دول الجنوب المتخلفة. أصابت هذه الاستراتيجية، لأنها استقرأت مكامن العنف، بعدما أصبحت طالقة من الرعاية والعناية، التي كانت تغدق عليها من الدول العظمى، بسبب حاجة هذه الدول إلى مواطئ أقدام لسياساتها المتعاكسة.

كانت الدول المستضعفة تنال فتات الحاجة من دول الرعاية في المعسكرين... ومن ثم، تُركت لشؤونها وفقرها وديونها وعوزها وأمراضها وقضاياها العالقة، فهربت إلى الحروب الداخلية والعنف الأعمى. وحظيت المنطقة العربية بسياسة التخلي الثنائية القطبية لمصلحة القطب الواحد الأعظم، الذي اختار أن يكون بكامل عنايته، إلى جانب إسرائيل، تاركاً القضية الفلسطينية، المعقدة والمتفجرة والصعبة والمستحيلة، في عهدة إسرائيل، فقط لا غير. فلسطين، اختصاص أميركي إسرائيلي، ممنوع على العرب أن يهتموا بها. أقيلوا منها، فاستقالوا وأعفوا أنفسهم من وجع المساءلة.

كان من الطبيعي أن يكون العنف، بكل أشكاله، مقاومة و«إرهاباً» وفوضى، هو الرد الطبيعي على سياسات التخلي، وإحلال سياسة «الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف»، التي تكرسها سياسات القوى البربرية القابضة على القرارات في البنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، وطبقة القوى الاقتصادية، المالية العابرة للقارات، والتي تصدر القرارات، وتلزم الحكومات بتطبيقها. كان من الطبيعي أن يولّد الظلم الدولي والتفاوت الرهيب، موجات

عنف وهجرة وفوضى وإرهاب.

كان من الطبيعي، أن تظل المشكلات الموروثة حية ترزق عنفاً ومقاومة، في مناطق كثيرة من العالم. وعلاجها، وفق أسلوب الولايات المتحدة هو: المزيد من العنف لبلوغ الأمن والاستقرار، أو معالجة العنف المشروع طبيعياً بالعنف المشرّع دولياً، ظلماً وعدواناً.

فالولايات المتحدة الأميركية لا تعالج مشكلات الفقر والاحتلال والإذلال، إلا بالقوة. معظم عملياتها السياسية في المنطقة العربية، هي عمليات جراحية غير ناجحة: العراق، فلسطين، لبنان، الصومال، السودان وسواها.

كان من الطبيعي كذلك، أن تتميز مقاومة وانتفاضة، بتسجيل حالات جديدة كلياً، تتضافر ضدها قوى دولية عملاقة، لتجريدها من قوتها وسلاحها وحجارتها.

فالمقاومة، والحالة هذه، ليست حالة عابرة، بل حالة أصيلة ومستقبلية. لأنها قادرة، بقواها الذاتية، وطبيعتها القتالية، وأساليب عملها الجدية، على أن تكون الذراع القوية التي تحمي سيادة الدولة، وتحمي الجيش كذلك، من عدوان أو من أهداف عدوان يبادر إلى تنفيذه العدو، لأن فاعلية المقاومة، تشكل استثناءً في المواجهة المعاصرة، بين قوى عملاقة، شديدة التعقيد والقوة، ومقاومة شديدة التصميم والاختصاص. فلم تعد المقاومة مشروع سلطة، بل مشروع مقاومة مديدة، لإخراج المحتل، وصيانة السيادة، وتصليب القرار، وحماية المكتسبات.

كانت المقاومة، عندما تنهي مهمتها، تلقي السلاح، وتطوب

نضالها بإقامة السلطة، وغالباً ما كانت تسيء إلى تاريخها. راهناً، المقاومة، ليست مشروعاً ينجز مهمة محددة في زمن أو في قضية محددة، فعليها مسؤولية حماية الدولة، كبديل من الجيوش، بسبب انكشاف قوة الجيوش وتراجع قدراتها القتالية.

المقاومة، مهما كانت ضعيفة، تبقى قادرة على الحركة والعقل، أكثر من الجيوش. لذا، لم تعد المقاومة ذراعاً مؤقتاً، بل هي الذراع القوي، الحارس للحقوق والمصالح والمصير والحدود والمستقبل.

وعليه، فإن الدولة المستضعفة في عصر الاجتياحات النيوليبرالية الجديدة، والتي فقدت الكثير من استقلاليتها وسيادتها وهامش المناورة، واستعدادها الطبيعي لدخول بيت الطاعة الدولي، (إذ لا بيت آخر يؤويها وتعاقب بالخروج من النظام الدولي وتعتبر دولة مارقة)، هذه الدولة المستضعفة، قادرة على أن تصوغ سياستها، ضمن منطق الممانعة، على قاعدة القوة الجديدة المستحدثة. فهشاشة الدولة المعاصرة، يقابلها، قوة المقاومة وصلابتها بكل أشكالها، السياسية والثقافية والتربوية والقتالية.

إن أصولية النظام الدولي الجديد، بكل بربريته وهمجيته، أوجدت رداً طبيعياً ذا جذور أصولية يمارس العنف بشكل بربري وأعمى... وهو عنف مدان.

فهل ينظر إلى المقاومة كعبء أم أنها تحلّل من عبء ومكافأة عز نظيرها؟ المقاومة، كما عرفت في لبنان، والانتفاضات في فلسطين، لم تكلف خزينة الدولة. هي قوة شعبية مجانية، عرفت كيف يكون الدعم، وكيف توظفه، وكيف تفوز بجائزة التحرير. عرفت

كيف تبقى الوحيدة المؤهلة موضوعياً، وبلا تبجح، للدفاع عن مصالح الوطن والأمة، في وجه دولة عدوانية عاتية القوة، مدعومة بقوة دولية عظمى، وتحصين غربي نموذجي، وتخاذل عربي غير مسبوق تاريخياً.

المقاومة، كما تتجلى اليوم، مؤهلة لصيانة السيادة والاستقلال، وردع العدوان، وإفشال نتائجه، وإقامة المجتمع الحاضن والمنتج لثقافة الممانعة وثقافة توظيف القوة في بناء الدولة التي تختار لنفسها دورها، وفقاً لمصالحها.

VIII

تغيّر العالم كثيراً...

تغيّرت أساليب السياسة.

تبدّلت طبيعة الدولة. ضعفت.

انقرضت مفاهيم دبلوماسية وطغت مصطلحات جديدة.

منطق القوة بات المنطق الغالب، أو شبه الوحيد.

ازداد العالم انقساماً. الظلم يفتك بأكثر القارات.

أميركا أمّمت الدول، لمصلحة حرية التجارة وجموح الخصخصة وعقيدة السوق والربح الفالت.

العنف، الفوضى، المجاعات، الأمراض، التمييز، التمايز، الهوة، كلها مصطلحات تطغى على السطح، وتضرب في العمق.

الإعلام سلاح استراتيجي، وسلاح دمار ثقافي شامل، بعهدة

وملكية كبريات الشركات المصنعة والمنتجة والمصدرة للأسلحة.

عالم جديد بالمرة...
ولذلك، كيف نصوغ علاقتنا بهذا العالم؟

أ ـ هل نتبعه، حذو النعل بالنعل. نطعّم أنفسنا بعقيدة النظام الدولي الجديد، ونلجأ إلى مؤسساته، لإحقاق حقوقنا، وتقديم التماسات للنظر في مطالبنا؟ وبالتالي، نكف عن المقاومة، ونوكل أمرنا إلى الدبلوماسية التي تعرج على نصائح الدولة العظمى الوحيدة، وهي نصائح مضادة لمصالحنا.

ب ـ هل نختار الممانعة؟

أمام الدول المستضعفة إذا أرادت الحفاظ على مصالحها وحقوقها وصيانتها من أي اعتداء أو استلاب، أن تنظر إلى بنية الدولة بطريقة مختلفة، وخصوصاً في منطقتنا العربية.

١ ـ اعتماد الديموقراطية الحقيقية، التي تطلق مقاومة الشعب السياسية، على أن تصان هذه الديموقراطية بالمزيد من الحرية لا بالخوف منها.

٢ ـ إعلاء شأن الحقوق الوطنية والقومية، واعتبار هذه الحقوق جزءاً لا يتجزأ من منظومة القيم الذاتية، وقيم حقوق الإنسان الحقيقية. قيمة الفرد، وقيمة المؤسسات، وقيمة الدولة، وقيمة الإنتاج، وقيمة العمل، وقيمة الثروة الوطنية، وقيمة التنمية.

٣ ـ اعتبار المقاومة المسلحة الذراع الشرعي لحماية الدولة

بديموقراطيتها ومصالحها وحقوقها.

٤ ـ إقامة منظومة تحالفية بين الدول الممانعة، والمرتكزة على ديموقراطية وحقوق الإنسان والقوى المناوئة لدكتاتورية السياسات الأميركية، وعقيدة عولمتها الشرسة.

IX

هل هذا وهم، أم وجهة نظر هشة؟

للدفاع عن هذه النظرة، فلننظر إلى البدائل. إن البدائل، هي منظومة الدول المغلوبة المستضعفة، التي تفتقد سيادتها وقراراتها وقوّتها، وأقصى ما تطمح إليه، أن تجد وظيفة إقليمية لها، تحفظ بقاء نظامها السياسي في الداخل.

نموذج مصر حي يُزرق. نموذج الأردن، أكثر بلاغة. نموذج دول الخليج، أكثر مطابقة، (نموذج ليبيا، أكثر فظاظة). ونقيس على ذلك، عينة من كثير من البلدان المغلوبة.

متوهم من لم يدرك بعد، حجم التغييرات المذهلة، والتحويلية، التي حصلت للعالم بعد سقوط الثنائية. متوهم من يظن، أن المسالك القديمة ما تزال سالكة. متوهم من يرى، أن آليات الأنظمة والحكومات وطرق العمل فيها، يمكن أن تكون مستقلة. إن هذه الدول، قد قبض على أنفاسها، وباتت مضطرة لتقديم كشف سنوي بسلوكها، في كل المجالات، وإلا أُشهر فوق عنقها، سيف الحصار والعقوبات و«حقوق الإنسان».

إن العالم المتحول بسرعة، لمصلحة قوى الضغط السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي، يمكن مواجهته عبر تجميع كل ما في الدولة من أوراق قوة، ومنها المقاومة، لصيانة استقلالها وسيادتها.

هل يمكن أن يحصل زواج بين الدولة والمقاومة؟

ما هو مطروح حالياً في لبنان، هو تحويل المقاومة إلى جيش. لعله من الأصوب تحويل بنية الجيوش إلى بنية مقاومة، وهذا ليس مستحيلاً وسيكون أقل كلفة.

لقد ولّى زمن الجيوش الغبارية الصغيرة والمنهكة والفاقدة لمصادر التسلّح الدائم. لعله، جاء زمن الإرادات القوية، المستندة إلى طاقة أمة وقدرات شعب وعصب أحزاب، ورجال سياسة، مؤمنين بأن تعريف السياسة الجديد، يقضي بعصيان موضوعي، لأوامر القوى العظمى، عندما تتعارض والسيادة والحقوق والمصالح الوطنية والقومية، كما يقضي برسم سياسات موضوعية، تستمد دفعها من الحقوق المشروعة في الاقتصاد والتنمية والحرية والسيادة، والمدعومة بقوة الديموقراطية، وبقوة المقاومة، والقوى المادية والروحية التي تزخر بها الأمة.

كيف يمكن عقد زواج بين المقاومة والسلطة، ولا يكون زواجاً إكراهياً؟ إن السلطة المنبثقة ديموقراطياً، وفق آليات ديموقراطية، يمكنها أن تعتبر المقاومة ذراعها العسكري للدفاع عن الحدود وما داخل الحدود. إن الديموقراطية صيانة للمقاومة، والمقاومة سياج للوطن ونظامه السياسي وحقوقه.

وأثبتت التجربة الفلسطينية أنه يمكن إنتاج مقاومة وديموقراطية معاً، حتى ولو كانت في ظل أعتى احتلال، وفي ظل أقوى اختلال في موازين القوى، تقريباً، على معظم الصعد. فهنا، الحفاة، يقاتلون العقارب باللحم الحيّ.

ولبنان، يستطيع أن ينتج هذه الحالة، إلا أن المانع الأساسي لقيامها، هو الطائفية، المانعة لنشوء نظام ديموقراطي يحسم الخيارات والأهداف، ويحدّد الوسائل، ومنها المقاومة.

منطق الطوائفيات في لبنان إلغائي في أوقات الأزمات. ويسعى إلى صفقة هشة، تضمنها نصوص مانعة، في زمن الهدوء الهش. لقد حظي لبنان بمقاومة نظيفة، ومنتصرة، ومع ذلك، فهي اليوم، في ظروف التأزم الداخلي والإقليمي، باتت مشكلة، والمطلوب، في أحسن الأحوال، لدى الطوائفيات المتناحرة، أن تُشكر وتعزل. هذا إذا لم يتجرأوا على اعتبارها امتداداً إقليمياً، يعمل وفق دفتر شروط إقليمي. وقد ازداد حصار المقاومة، من الطوائفيات المستشرسة، عبر محاسبتها على أدائها في عدوان تموز، وهي تتعرض بسبب انتصارها على العدو الإسرائيلي، لهجوم عدائي من الداخل، يطالبها بتأدية الحساب، والتخلي عن السلاح، والانتظام في القافلة الإسرائيلية/ الأميركية/ العربية.

X

لا يغلق باب النقاش على مسائل جديدة، وآليات مطلوبة لاحتضان وتوظيف مكامن القوة. ولذا، فإن إدخال المقاومة، كجزء، في الاستراتيجيات الدفاعية للدول المستضعفة والمضطهدة، يحتاج إلى

جهد كبير، وإلى توظيف طاقات علمية وميدانية، وعقد حلقات حوار ونقاش، وإقامة علاقات عميقة، مع قوى الرفض العالمية، بدءاً من البلاد العربية، وصولاً إلى بورتي الليغري ودول الديموقراطية الجديدة في أميركا اللاتينية.

إن أميركا لو تفرض على العالم إملاءاتها، والدول الصالحة هي الدول المطيعة، حتى لو أدى ذلك إلى كوارث: (في العراق) وإلى مجاعات أشد وطأة من الهولوكوست (يموت طفل جوعاً كل ثلاث ثوانٍ) وإلى احتلال (فلسطين) وإلى نهب منظم لدول الطاقة (... الأمثلة لا تحصى) وإلى هجرة أدمغة من الأطراف إلى المركز، وإلى جرّ الجميع إلى نهاية التاريخ للشعوب وبدء التاريخ الجديد، لطبقة الأثرياء المتوحشين والشركات القابضة والمؤسسات العالمية العنكبوتية.

وعليه، فإن أميركا ليست قدراً، بل هي سياسة. ويمكن مواجهة هذه السياسات الجائرة بالممانعة، والقوة القابلة للاستعمال وتحقيق الإنجازات. فمن واجب الدول المغلوبة، أن تتغلب على عقيدة العجز، وتبحث عن قوتها لدى شعبها، وفي ثقافتها، وفي مصالحها، وفي إنسانيتها، وتخوض معركة دفاعية، دقيقة، قادرة على إقناع الرأي العام العالمي الشعبي بأخلاقية ونظافة وإنسانية المطالب التي ترفعها.

إن مطالب الشعوب المقهورة، هي في الأساس، مطالب الحدود الدنيا الإنسانية. وبالإمكان، انتظار ردّ فعل إنساني عالمي.

إن لحظة الاستفادة من الممانعة القوية الراهنة لن تعود مرة أخرى،

وعلى قوى المجتمعات العربية الحية أن تنهض لمهماتها، عبر أحزاب تراجع وتنقد مسيرتها ـ لا أن تجلد ذاتها وغيرها ـ انطلاقاً من حجم مساهمتها في تحقيق الإنجازات الوطنية والقومية، وليس بدءاً من تحقيق المطابقة بينها وبين فكرها وثقافتها ومشروعها السياسي الخاص. هذه المراجعة، تتأسس من خلال الوقوف أمام منصة جديدة هي: كيف يمكن أن نجتمع لنقاوم، لا كيف نتفرق لنساوم. فلنتفق على الممانعة، شرطاً أولياً، ولنختلف فيما بعد، على الوسائل، ولتحسم الديموقراطية في خيارات المواجهة.

حوار الحفاة والعقارب

الولايات المتحدة الأميركية، الاتحاد الأوروبي، الـ١٥٥٩، إسرائيل، لبنانيون من شرائح وطوائف، يطالبون بنزع سلاح الميليشيات (سلاح المقاومة).

ليس في هذا غموض، الوضوح سمة هذه الرغبات/ المطالب/ القرارات، وتأجيل البت بآليات تنفيذ هذا المطلب، وتمويهه عبر لبننته، أو تغطيته، بحوار داخلي، أو نقله من مستوى متفجر إلى كواليس الإقناع القسري، لا يلغي ما يلي: المطلوب، للتنفيذ، نزع سلاح المقاومة الإسلامية في لبنان، وإقفال ملف فلسطين في لبنان، إلى الأبد، بالتفاوض إذا أمكن، وبالقوة إذا استحال.

السؤال: هل للبنان مصلحة في استبقاء هذا السلاح، أم أن مصلحته، وسط الضغوط الدولية، الغربية، الإسرائيلية، اللبنانية

(للبعض طبعاً) أن يتخلى عن هذا السلاح، والاعتماد في مسيرته القادمة، على شبكة أمان واستقرار، توفرها هذه القوى بالذات؟

الاستطراد ضروري قبل محاولة الإجابة:

لا يذكر التاريخ القديم ولا يفصح التاريخ الحديث، أن السلام دائم، وأن السلام مضمون، وأن السلام ترعاه المواثيق. محاولات البشرية الدؤوبة، لقتل الحرب، باءت بالفشل. السلام نادر الوجود. الحرب لا عمر لها، إنها خالدة، ولن تموت إلا بموت البشرية.

الأرقام تفصح عن قاعدة: بين العام ١٤٩٦ ق.م. والعام ١٨٦١م عرفت البشرية سلاماً لمدة ٢٧٠ عاماً فقط، فيما عاشت ١٤٥٤٢ حرباً لفترة ٣١٣٠ سنة. بمعدل ١٣ سنة حرب مقابل سنة سلام. وما بين عام ١٩٤٥ حتى الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠) وقع ١٢٧ نزاعاً مسلحاً. (أندريه فونتين، **لوموند**، ١١ أوكتوبر ١٩٨٠).

لماذا؟

الأسباب والتبريرات متوافرة دائماً، ولا حاجة إلى بذل جهد كبير. (ماكس بانز دي فليت).

الهدف؟

كل كيان يحتاج إلى أمن. والأمن يلزمه تسلح. لا نجد قولاً أو موقفاً عملياً ينفي هذا المطلب. كارتر: «الضمانة الأكثر دواماً للسلام، هي القوة المسلحة». أيزنهاور وتشرشل: «نتقدم إلى السلام الدائم عبر خفض حجم التسلح، ولبلوغ ذلك، علينا تطوير قوانا

المسلحة». أتشسون: «علينا في الوقت نفسه، بناء قوتنا المسلحة من أجل السلام»... «ولكي نحافظ على السلام نحن بحاجة إلى جيش قوي».

فالحرب والسلام وجهان لقضية واحدة. فلكي تحصل على السلام عليك أن تستعدّ للحرب. وعندما تحارب فإنك تتطلع إلى السلام. وهكذا دواليك، منذ قايين الأول، إلى قايين العصر، في كل عصر. وعليه، فإن الطريقة الفضلى لنزع الأسلحة، هي في زيادة التسلح، والطريقة الأسلم لبناء السلام، هي أن تمارس الحرب.

بوانكاريه: الويل للضعفاء

نعود إلى السؤال: سلاح المقاومة شر لا بد منه، أم فضيلة يلزم الحفاظ عليها، أم هو رجس سياسي يلزم اجتنابه؟

لا يذكر التاريخ أبداً، أن دولة، أو مقاومة، أو ثورة، سلمت أوراق قوتها، وتحديداً سلاحها، قبل بلوغ الغايات التالية: إما هزيمة العدو، إما التوقيع على سلام، وإما تسوية متينة مع ضمانات. وحده المستسلم، يسلّم سلاحه، ويُجرَّد من قواه وتفرض عليه شروط وسقوف ومراقبة.

لا يذكر التاريخ أبداً، أن دولة أو مقاومة أو ثورة، لم تزد من حجم تسلحها، وبناء قوتها العسكرية بعد السلام. يذكر الكاتب جان بيكون في كتابه (Les Saigneurs de la guerre) أن حجم الإنفاق العسكري، في كل الدول، بما فيها دول العالم الثالث الفقيرة، يفوق الإنفاق على الصحة والتعليم والـ... وهو يتزايد باضطراد، ومعظم الديون متأتية من «التنمية المستدامة» للقوات المسلحة.

ويذكر جان كريستوف روفان في مؤلفه (L'Empire et les nouvaux barbares) أنه كان من المتوقع، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، واختفاء حلف وارسو، أن ينخفض حجم الإنفاق العسكري لدى دول حلف الأطلسي. غريب! القاعدة لا شذوذ عنها. أميركا بمفردها، تفوقت في إنفاقها، على خمس دول صناعية كبرى بما فيها الصين.

إذا كانت هذه هي الطريق التي سنّتها البشرية خلال مسيرتها، فلماذا يشذ لبنان، وقد بات قوياً وممتنعاً وممانعاً، عن هذه القاعدة. فلم يهزم العدو الإسرائيلي بعد. لقد انسحب. وبين لبنان وإسرائيل خط أزرق يخترق. إضافة إلى أن إسرائيل من أكثر الدول إنفاقاً على المجهود العسكري. هي ثكنة لا تشبع سلاحاً، ولا تتوقف عن إنتاجه وتذخيره.

لا بل إنها دولة عسكرية، وصاحبة تفوق تكنولوجي ساحق. ومعاهدها الاستراتيجية تطلق تحذيرات من نقص في التجهيز والتطوير، براً وبحراً وجواً وفضاءً (صواريخ، منصات إطلاق، أقمار صناعية). بل إن عدداً من راجحي العقول أمثال رئيس المحكمة العليا السابق نبه إلى فقدان الإرادة الوطنية في القتال، والتحضير للمعارك «إن وهم السلام الذي يفقدنا ضرورة الشعور بحتمية أن نقاتل لندافع عن أنفسنا، يقلقني كثيراً. إنه يمنعني من النوم ويضر بصحتي كثيراً».

نعم للمقاومة ولا لسلاحها!

لا يبدو أن سلاماً سيحضر قريباً، ولا يبدو أن تسوية ممكنة، بعد

اغتيال أوسلو، وإطلاق النار على قدمي «خريطة الطريق». وبالتالي، لا معاهدة بين طرفين، ولا ضمانة، حتى الآن.

أحمق، علمياً وعسكرياً وسياسياً، من لا يلتفت إلى ضرورة احتفاظ لبنان بقوته، للأسباب الواردة أعلاه. فماذا عن الأسباب الأخرى؟

١ لنفرض أن إسرائيل انسحبت من مزارع شبعا المحتلة؟ فهل هذا يفرض أوتوماتيكياً، أن تتخلى المقاومة عن سلاحها؟

الجواب: نعم لدى فريق، ولا حاسمة عند المقاومة ومن يرى رأيها.

نعم، لأن مبرر استعمال السلاح من أجل التحرير، قد انتفى. فالأرض اللبنانية تحررت من الاحتلال، فوداعاً للسلاح.

جواب آخر: لا، لأننا نعيش في جوار بؤرة صراع، تفجرت في العام ١٩٤٨، وانتشرت هذه البؤرة، فأصابت مصر وسورية ولبنان والأردن وفلسطين، مباشرة وبعنف غير مسبوق، وبأحدث حروب صاعقة، استعملت فيها كل التقنيات المتطورة، وهي ما زالت تثير، على مستوى الأنظمة، حسابات دقيقة، وعلى مستوى الشعوب العربية، توترات تبلغ أحياناً، حدود العنف الأقصى، وأحياناً حدود «الإرهاب».

لبنان مقيم في هذه الجغرافيا. خلّص نفسه مراراً من نيران هذه البؤرة، التي تحتضن أصعب قضية سياسية وإنسانية واستراتيجية، منذ العام ١٩١٧، ولم ينج من هذه النيران مراراً أخرى، فحضرت

بكامل عدتها وسعيرها في السبعينيات، واستمرت حتى ٢٥ أيار ٢٠٠٠.

فهل بإمكان لبنان أن يطمئن إلى سلامه وإلى استقراره وإلى إنمائه وإعماره، وهو على تخوم بؤرة صراعية، قد تتخطى تخومه، وتقيم في دياره، لما لهذا الصراع من آثار على شرائح شعبية في لبنان، ذات قواعد وتقاليد وثقافة مستمدة من الدين واللغة والحضارة والـ... ولما لهذا الصراع من تأثير على القوى السياسية كافة، سلباً وإيجاباً، في لبنان؟

لم يكن لبنان، في حياده الإيجابي، ممسكاً بمفاتيح أبوابه كلها من الداخل، ولا كان قادراً على إقفالها في وجه هذا الصراع، فانخرط فيه، وبلغ فيه غاية التحرير. ومطلوب من لبنان، أن يسلم مفاتيح أبوابه، لضمانات دولية، فيما بؤرة الصراع، بكل فنونه: حجراً ومقاومة وقصفاً وتدميراً واستيطاناً واغتيالاً، لا تزال متوقدة، ولا يبدو أنها ستخمد قريباً.

بهذا المعنى السلبي فقط، يلزم أن يحتفظ لبنان بورقة المقاومة، كي يقوم بواجبه، بحماية أرضه وحدوده، ومنع إسرائيل من استسهال تهديده، وفرض إرادتها عليه، وإخراج لبنان من دائرة التأثير المعنوي، في مسار الدفع الإقليمي، لقضية فلسطين، إذا أمكن ذلك.

سلاح المقاومة خطر... على مَن؟

متى يكون هذا السلاح مضراً بلبنان؟

أولاً: إذا تهوّر، وخرج عن إطار الحدود الكيانية للبنان، وتصور أن باستطاعته أن يؤدي وظيفة فلسطينية أو سورية أو إيرانية أو... أن باستطاعته تجاهل الحدود الدولية، وضرورات اللعبة السياسية، في الوعاء الإقليمي والمدى الدولي.

تجربة المقاومة شديدة الوضوح في هذا الصدد. خاضت مقاومة لبنانية حاسمة في لبنانيتها، حتى الحدود الدولية المعترف بها لبنانياً، باستثناء مزارع شبعا. ولما بلغت الحدود، توقفت من تلقاء نفسها. ٢٥ أيار الألفين بلغ حدود إنجازه. من الحمق تصور المقاومة الإسلامية، وهي تخترق الحدود المعترف بها لكيان لبنان. قالت بفلسطينية النضال الفلسطيني، كما كانت هي لبنانية في المقاومة الإسلامية.

لا أتطرق إلى التأييد والتأثير والإعلام والمواقف المعلنة لهذه المقاومة، وقد كانت بالغة الأثر في القدوة والشهادة والسطوة والصدقية. لأنني أبحث فقط في سلاح المقاومة، المطلوب أن يتنازل عن مقامه، لمصلحة التطمينات والضمانات والعهود والوعود.

ثانياً: يكون سلاح المقاومة مضراً إذا تحول إلى أداة حسم في الداخل اللبناني. أو، إذا تصرف «حزب الله» سياسياً، ضمن النظام المرعي، مستقوياً بإمكانية استعمال هذا السلاح. ونظراً لحساسية الواقع اللبناني المطيّف بمنسوب فائق ومتفوق، فإن هذا السلاح سينظر إليه البعض شوكة تسيء إلى العلاقات السيئة في الأصل، بين الطوائفيات المتصالحة أو المتصارعة.

لا علاج للمخاوف الداخلية المتبادلة، فهذه عقدة سياسية

مستحكمة في أسس النظام السياسي اللبناني، وفي مقومات كل مؤسساته. فإذا انتفى الخوف والتخويف من السلاح، فقد تُستحضر عقدة الإنجاب والعدد، كما تستحضر عقدة المال و«أسلمة البلد». لبنان لن ينجو في القريب العاجل من تجارة الخوف، لأنها أفضل دينامو، لتحريك الحياة السياسية المستذئبة.

لا أخوض في هذا السجال المتقن الإغلاق، والذي لا يفضي إلا إلى محاكمة النوايا. لذلك، أخلص إلى وضع السلاح في إطار وظيفته الواضحة: التحرير والدفاع عن لبنان منعاً لأي اعتداء، عسكري أو سياسي أو دبلوماسي أو حقوقي، الآن أو في المستقبل، إضافة إلى كونه ورقة قوية، إذا توافرت ظروف إقليمية ودولية لحل المشكلة الفلسطينية.

فالحزن للضعفاء في ساحات الحرب... والويل للضعفاء في ساحات المفاوضات. في الحرب تسلخ جلود الضعفاء، وفي المفاوضات تسلخ جلود البلاد والشعوب. هكذا يحدثنا زرادشت الحروب والأقوياء وصناعة ما بعد الانتصارات.

وجواباً مختصراً عن السؤال: لم يستعمل حزب الله سلاحه في حروب لبنان السياسية، فيما استجمعت القوى اللبنانية، كل المحرمات (الطائفية + الاستخبارات + الوصاية + الفساد) في كل معاركها السياسية، فسقط لبنان في محظور الاغتيالات وما استتبعها.

وإذا لم يكن تاريخ هذا السلاح شافياً، ويخشى من انفلاته، إذا تغيرت الظروف، وتبدلت القيادات، فمن الواجب إخضاع هذه

المسألة للحوار بدقة، جواباً على هذا المحظور بالتحديد.

ثالثاً: سلاح المقاومة خطر على الوضع اللبناني، إذا تحوّل عن غرضه اللبناني. قيل، أن هذا السلاح لخدمة اغراض سورية (الجولان) وأغراض إيرانية (الملف النووي). لا بد من التوضيح. إن العلاقات بين الدول والمنظمات وبينها وبين أنواع المقاومة (العسكرية والسلمية) ليست تهمة، بل هي وصف لحالة موضوعية، اتسمت بها العلاقات بين هذه الأطراف. فلا ثورة أو مقاومة بدون تحالفات ومساعدات واتفاقات مع أطراف في الداخل والخارج. كل ادعاء آخر، غباء ملائكي. الطهرانية رذيلة سياسية، في هذا المقام. حتى الدول، تقيم فيما بينها علاقات وأحلافاً وتكتلات. فالدعم ليس تهمة إلا إذا كان لأداء وظيفة غير موضعية، ولخدمة أغراض الدول الداعمة، ولقد ظهر أن التحرير لم يكن للجولان أو منعاً لهجوم على مفاعلات نووية إيرانية، بل كان سخاءً دموياً واستشهادياً لتحرير جنوب لبنان، المقيم في الجنوب اللبناني، لا في جنوب سورية أو على تخوم إيران.

لاءات المقاومة

هذه هي بعض ملامح الصورة الأساسية والحدود المرسومة لهذا السلاح. حرصت المقاومة على تكريس ما يلي:

١ سلاح المقاومة لن يرفع في وجه اللبنانيين.

٢ سلاح المقاومة ليس في خدمة أي نظام أو دولة، وإن كان وجوده وقوته يدعمان حقوقاً ومطالب على علاقة بالقضية الفلسطينية وتعزز مقاومة الضغوط، بما لها من فضيلة إلزام العدو

بإجراء حسابات دقيقة لجموح عدوانيته.

٣ سلاح المقاومة يمكن أن يكون له تأثير بالغ، إذا التأم شمل التفاوض، في ظروف دولية وإقليمية مناسبة لتأمين حقوق الشعب الفلسطيني. لا تنازل عن السلاح إلا...

تلك هي أبرز علامات القوة كسلاح معنوي. أما مدى تأثيره عسكرياً، فلا يقاس بتوازن بين العديد والعتاد، بل بين تأثير كل سلاح، وفق ظروف استخدامه، على الطرف الآخر.

أثبت سلاح المقاومة الإسلامية، أنه نافس تأثير ومفاعيل السلاح الإسرائيلي، مع فارق هائل لا يقاس، بين تفوق الآلة العسكرية الإسرائيلية، ووضاعة السلاح المقاوم في لبنان. سطوة السلاح الإسرائيلي التي لا تنازع، في ميدان المقاومة الكمية والنوعية، لم تمنع سطوة المقاومة التي صاغت يوميات قتالها، بشجاعة ودقة وبسالة وحسابات وتأثير، جعلت من إسرائيل تعدل وتغير من سياساتها، حتى بلغت رتبة الانتصار، فانسحبت إسرائيل في «يوم العار» وفق التقويم الإعلامي الصهيوني، في ٢٥ أيار ٢٠٠٠.

ووفق ما هو مفترض، فإن قوة الردع والتوازن لدى المقاومة الإسلامية في لبنان قد تضاعفت، فأحد أبرز وجوه المقاومة، حدثني مرة عن الحمق الإسرائيلي، إذ كيف ينسحب من الجنوب اللبناني، تاركاً شمال فلسطين المحتلة لمرمى نيران المقاومة، وفاتحاً مدى بعشرات الكيلومترات أمام الصواريخ.

ازدادت المقاومة قوة... وحجم الأضرار البالغ الذي يصيب إسرائيل، إذا فتحت جبهة القتال، سيكون كبيراً جداً، ولعل هذا

التوازن الجديد يمكن أن يؤدي إلى إقامة التوازن المانع لإسرائيل من ممارسة الشطط. أما إذا مارسته، فإن هزيمة عسكرية ستلحق بها.

سؤال: هل قوة المقاومة قوة للبنان أم ضعف له، بحيث يصبح في عين إعصار الضغوط الخارجية والداخلية.

طبيعي أن إسرائيل ومن معها، تتضرر من قوة المقاومة المتنامية وتحاول بكل الوسائل منع هذا النموذج المحاذي لاحتلالها من الفاعلية. فتزيد من حجم الضغوط ووسائل الحصار.

فقوة المقاومة ترفع من وتيرة الضغوط، لكنها قد تحدّ، بنسبة عالية، من وتيرة الاعتداء. فللقوة ضريبة يجب أن تدفع مجدداً لحمايتها، تماماً كما قال مرة رئيس وزراء فرنسا السابق لوران فابيوس: «نحن دولة غنية، علينا أن ندفع ثمن ذلك تضحيات كبيرة ومؤلمة». الحفاظ على قوة لبنان يتطلب تضحيات، أما حرمان لبنان من عناصر قوته المناسبة له في الوضع الإقليمي الراهن، فتضحية بلبنان واستقراره وفتح أبوابه على المجهول.

مبارزة الجيش والمقاومة

لعل ساذجاً يسأل: وهل سلاح المقاومة يسهل عليه الدفاع عن لبنان، وما هي مهمة الجيش اللبناني؟

أقول ساذجاً وأضيف، إن من الغباء القاتل، أن نستمر في طرح هذا السؤال. عسكرياً: الجيش الأقوى يسحق الجيش الأضعف، إسرائيل هي الأقوى بما لا يقاس. الجيوش العربية للقمع، مارسته بتفوق وتمارس الاستعراض وحماية العروش.

عسكرياً: أثبتت إسرائيل أنها هزمت العرب عام ١٩٤٨، وعام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ (بعد تفوق لأيام لجيوش مصر وسورية) وهزمت وستهزم جيوشاً أخرى، لكنها لم تستطع أن تهزم المقاومة اللبنانية. قبل اجتياح ١٩٨٢، وقبل اتفاق ١٧ أيار وبعده، وصولاً حتى التحرير. أما الانتصار الصعب في تموز ٢٠٠٦، فقد أقنع إسرائيل بجسامة خسارتها، ولم يقنع عرب الاعتدال ولبنانيي الاعتزال.

علمياً: الجيوش الكبيرة تهزمها المقاومة الصغيرة الجبارة التي تستنزف الجيوش ودولها. بريطانيا لم تصمد إزاء استنزاف غاندي السلمي لاقتصادياتها.

عملياً: النموذج اللبناني هو النموذج الوحيد الناجح، أدى وظيفة الانتصار، فيما الجيوش العربية، انهالت علينا انكساراً بعد انكسار.

سؤال وجيه جداً ولكن...

سؤال: لماذا لا نكون عاقلين، ونتعاطى مع موضوع النزاع كالأردن وقطر ومصر وسواها؟

لبنان، ليس قطر أو الأردن أو فلسطين، دفعنا ثمناً باهظاً لبلوغنا حالة عربية إنسانية نموذجية. بلغنا الحرية. وهذا ليس تفصيلاً. ألغينا احتلالاً، وهذا ليس هامشاً في السياسة. ثم، من قال إن لبنان يطيق دكتاتورية وقمعاً حفاظاً على سلام يحتاج كل يوم إلى تخويف المواطنين وإرهابهم... القمع اللبناني، الذي يعتبر قمعاً مخففاً إزاء أدوات القمع العربية، لم يصمد، برغم كونه قمعاً يتفيأ

القضية القومية. لقد أُلغيت الوصاية والحماية السورية، برغم كونها داعمة وحامية للخيارات القومية. فهل يتصوّر عارف ومطلع، أن يتحول لبنان إلى نظام قمعي، ضد ناسه ومواطنيه، لحماية سياسة دولية وإقليمية، قبل بلوغ الحل النهائي؟

لبنان، في مقاومته، مثّل ويمثّل النموذج لكثير من شرائح المجتمعات العربية، ونموذجه عبء على الأنظمة العربية. والتاريخ، تصنعه الدكتاتوريات أحياناً، وأحياناً أيضاً، تصنعه قبضات الشعوب، وهذا القول، ليس شعراً. التاريخ معبأ بقبضات الشعوب.

سؤال آخر: ما هذه الازدواجية: جيش لبناني بعديد كبير، ومقاومة مستقلة عنه، بعديد فاعل، وقرارها ليس بيد السلطة السياسية في الدولة اللبنانية؟

سؤال أكثر وجاهة ولكن...

عرفت الأحداث الأوروبية في القرن التاسع عشر جدالاً واسعاً في كيفية التعامل مع الأنصار، أي مع جماعات أهلية، تقاتل إلى جانب الجيوش، أو تناصرها أو تساعدها. الدول التي كانت تشعر بضعف، مثل فرنسا في مواجهة ألمانيا، كانت تلح على منح هؤلاء وضعية قانونية غير مستقلة، تطبق عليها قوانين الحرب، فيما كانت ألمانيا القوية ترفض ذلك، وتعتبر الأنصار، إرهاباً، فلا قوانين ترعى هؤلاء. ولما ضعفت ألمانيا، طالبت بما كانت تلح عليه فرنسا، فيما تمنّعت الثانية.

لم تكن الجيوش وحيدة في القتال، كما أنها لم تكن دائماً مستقلة عن الجماعات المؤيدة لها. هذا في الحرب. فماذا عن أيام الهدوء؟

لا أعرف كيف نسمّي تأييد الولايات المتحدة الأميركية لبقاء قوات البشمركة في كردستان العراق، فيما هي التي تتولى، إنشاء الجيش العراقي وتدريبه وتجهيزه، ولماذا لا ترفع صوتها عالياً بوجه حرس الحدود الإسرائيليين وميليشيات المستوطنات؟

لا نحتاج إلى جواب، لأن محاولات الإجابة نوع من التبرير، لا غير.

قرار المقاومة بيد من؟

سؤال: ألا يجب أن يكون قرار السلم والحرب بيد السلطة السياسية!

الجواب: طبعاً، بشرط أن تكون السلطة السياسية، سلطة منبثقة من ديموقراطية حقيقية لا تشوبها شائبة طائفية أو تبعية أو قانونية. (مثل القانون الانتخابي الراهن).

جواب آخر: في بحث قدم في باريس في العام الفائت في ندوة «لنتخيل السلام»، برهان ساطع على أن الدول الديموقراطية لا تصنع حروباً فيما بينها، الحروب تنشأ بين دول ديموقراطية وأخرى دكتاتورية، وبين دول دكتاتورية وأخرى تشبهها. لم يحصل مرة أن حصلت حرب في القرن العشرين بين دول ديموقراطية، بما فيها، في الحربين العالميتين الاولى والثانية. إنما، لماذا استثنيت فلسطين الديموقراطية من نعمة السلام، واستمرت إسرائيل الديموقراطية في عدوانها؟

إذاً: إن سلطة سياسية منبثقة من انتخاب ديموقراطي بقانون ديموقراطي، تتيح لنا المطالبة بالإمساك بكل قرارات الدولة. ولأننا لم نبلغ بعد

مرتبة التمثيل الديموقراطي، فإن لبنان مقتطع بين طوائفه بشكل حاسم وواضح. مقتطع انتخابياً، إدارياً، مالياً، إنمائياً، سياسياً، أمنياً... لذلك، بدت حالة المقاومة، كأنها جزء من هذا الاقتطاع، فلماذا الاعتراض عليها والسكوت ومباركة الاقتطاعات الأخرى؟

لنسدّد القول: إن التجربة التي اجتازها لبنان بنجاح عبر انفصاله واتصاله معاً، بالمقاومة، أوصلت لبنان إلى نتيجة حاسمة: التحرير. فهل يستطيع الاستمرار بهذه التجربة، للحفاظ على قوته من دون تدفيع لبنان ثمن «مغامرات مقاومة» غير محسوبة النتائج؟

لا قدسية للوسائل، بل «المقدس»، هو في الغايات.

ثمة إلحاح دولي إسرائيلي أميركي أوروبي ولبناني (قديم وحديث) على إلغاء حالة المقاومة، يتخذ من شعار السيادة والاستقلال ووحدة الدولة هدفاً، يلزم بلوغه وتثبيته. يصح ذلك في دول ولا يصح في أخرى، فلماذا لا تثبت بريطانيا العظمى هذا المبدأ على ما تدّعيه أرضها، عبر تعاطيها مع ممثلي إيرلندا المعتدلين المتقدمين للتفاوض باسم «الجيش الإيرلندي السري»؟ لبريطانيا ظروفها، تتفاوض، فيما لم تصل بعد فرنسا إلى هذه الدرجة للتفاوض مع الثوار في كورسيكا، ولا إسبانيا مع منظمة الإيتا الباسكية.

للبنان وضع خاص، كغيره من الدول، ومع ذلك، فإن من الضروري التعاطي مع هذه المقارنات والذهاب إلى مناقشة الموضوع داخلياً. كان من المفضل أن تكون المقاومة تابعة للجيش، فريقاً من الأنصار. ولكن هذه الصيغة تبدو عملياً، أنها ذهاب للانتحار المزدوج: نحر المقاومة ونحر الجيش، في حال القيام بأي عمل

مقاوم لعدوانية إسرائيل، أو أنه ذهاب إلى شلل الاثنين، حيث إن اعتبارات الجيش اللوجستية والسياسية، تختلف عن احتياطات المقاومة التي تستطيع أن تتلقى تبعات الرد الإسرائيلي.

الجيوش تقاتل بتكتيك الجيوش، وهو أمر مختلف ومتناقض مع تكتيك حروب المقاومة، لا يجتمعان معاً، لا يستتبعان، بل يتكاتفان ويتساندان.

كيف؟ الالتباس ضروري، كي لا يعطى العدو ذريعة اتفاق القاهرة مرة أخرى. على أن من الضروري أن يكون ذلك، ليس استقطاعاً عنوة، من قبل سلطة الدولة، أو استقطاعاً بالتراضي، كما يحصل مع زعماء الطوائف المتعاقبين على المحاصصة، وقد كان ذلك ميسوراً سابقاً، فهل هو ميسور لاحقاً.

لا يبدو ذلك في الأفق.

المطلوب نزع سلاح حزب الله، عبر إقناعه بتسليمه.

فماذا لو لم تقتنع المقاومة وقالت: الظروف والضمانات أشد خطراً من الضغوط، ورفضت تسليم السلاح؟

إن قراءة الواقع، تفرض انتظار نتيجة هذا الحوار، لكنه قد يفضي إلى أمر مستبعد: نزع السلاح طواعية، أي تسليمه، أو نزعه بالقوة.

ما العمل؟

إيجاد صيغة سياسية رسمية لحماية قوة لبنان، وإلا فإن اللبنانيين سيدفعون ثمن تبنّي سياسة إسرائيل وأميركا ومن معهما.

دعوة حبية إلى الانتحار

«تعالوا نحاسب المقاومة في لبنان».

ليكن هذا تقليداً. المحاسبة نادرة في لبنان، ككتابة التاريخ تماماً. نتمرن على كتابة تاريخ وتاريخ مضاد. الحساب، مجرد ثأر. السياسة انتقام مؤقت. المساءلة حكم مبرم بالنوايا. نحمل في ثقافاتنا السائدة إدانات موروثة، وبراءات مسبقة، وفق اصطفافاتنا القبلية.

هذه المرة، «تعالوا نحاسب المقاومة عن جد».

ليكن هذا تمريناً جدياً. فلم تعتمد مؤسساتنا العائلية والمدنية والاجتماعية والحزبية والسياسية و«الشبه ديموقراطية» على تقييم أو مساءلة أو محاسبة حقيقية. ينعدم التجديد ويتكرس التقليد، عندما

تتغيب سلطة النقد، وتستحضر لغة الإدانات المتبادلة، ثم... «عفا الله عما مضى»، و«لنفتح صفحة جديدة»... للممثلين القدماء أنفسهم، أو، لورثتهم من بعد. أليس لغياب المساءلة والمحاسبة، بموضوعية وحرية وغائية، يعيد لبنان إنتاج نفسه، منذ قرن تقريباً، بنسخ تميل إلى الأسوأ؟ أليس التعبير السائد: «اليوم أنحس من البارح وأفضل من غد»، صحيحاً ومعبراً عن حالة اللبناني؟ أليس كلما نتقدم نتراجع؟

إذاً: «تعالوا نحاسب المقاومة قبل قطع رأسها»، كما هو مطلوب. حتى ولو كان ذلك افتئاتاً، كما يظن، إذ ليس من العدل أن نرفع بوجه المقاومة لائحة اتهام، ونعفو عن الطبقة السياسية، أو معسكرات السياسيين المحترفين، أو سلالات القناصل. وللحقيقة، إن هذه الطبقة المتوارثة أو المستولدة من الحرب اللبنانية، أو، من الرحم الأنتن لهذه الحرب، لم تخضع للمساءلة، لأن اللبنانيين تلكأوا عن ذلك. معظم اللبنانيين يرى أن الاصطفاف الطائفي انتماء، وحماية، ومتراس. فالأغلبية اعتادت الوراثة السياسية. تحضر حفلات التتويج والتطويب وإلباس العباءة السياسية، عند شغور المنصب/ الرتبة/ النيابة/ الزعامة. اختارت هذه الأغلبيات المتناقضة، الفراش الزوجي لينتخب عنها. فمعظم السياسيين في لبنان، وُلدوا، وملاعق السلطة في أفواههم، فأكلونا. ومن لم تلده أمه سياسياً، استولدته الأجهزة... وصار تقليداً. «تعالوا نحاسب المقاومة الإسلامية في لبنان» قبل تقديمها ذبيحة، قرباناً على منصة القرار ١٥٥٩. تعالوا نحاسبها في العام والخاص، في الكبيرة والصغيرة، في المبادئ والوقائع، في التفاصيل وتفاصيل التفاصيل، قبل أن نتبرع بأقل الإيمان اللبناني: «فلنغسل أيدينا من دم هذا الصديق... دمه علينا وعلى أولادنا من بعدنا».

اتهامات ناصعة

سأبدأ بالأعمال المنسوبة إلى المقاومة.

عملها فادح جداً. لم يسبقها إليه أحد من قبل. جاءت في زمن أعدمت فيه الثورات. ساد منطق التبرير. انتشر فكر المسالمة. سقط النصير السوفياتي. انهارت الثنائية الدولية. انكشف ظهر الثورات وصدرها مشرع. القوة السوبر عظمى كاسحة. المواءمة خير من المناوأة. السلامة أفضل من المقاومة. جاءت في وقت انتقل فيه اليسار إلى اليمين، واليمين إلى أقصاه... الثورة صارت حلماً من أحلام الكوابيس. الانتصار أفق مسدود أمام الأفق. والسائد عند العرب: إحباط «بناء»، خضوع «ملتزم»، واستسلام «واق». في هذا الزمن الذي كثر فيه اتهام الثوري بالخرافي، في هذا الوقت/المفصل بالذات، أنجزت المقاومة الإسلامية في لبنان، تحريراً ناصعاً ونموذجياً، ألزمت فيه العدو الإسرائيلي (أستعمل عبارة العدو الإسرائيلي، لياقة، على الأقل) على الانسحاب والاندحار، من معظم الجنوب اللبناني المحتل، بلا قيد أو شرط... حصل التحرير، فيما كان الإسلام السياسي، المنتشر في حركات أصولية سلفية، يقاتل في أفغانستان، أميركياً وعربياً، أو، يتقن صياغة الأشكال المهتمة بالهندام الإسلامي، وكيفية ممارسة التزمّت، وتوزيع بطاقات الإيمان على من يكفّرون كل من يفكّرون بغير طريقتهم المنسوبة إلى الصراط المستقيم.

هل هذا متفق عليه؟

لعل إضبارة الاتهام، تحمل في رأس لائحتها تبرئة لإسرائيل من

ارتكاب فعل الاندحار. فإزاء العالم، نفّذت إسرائيل قرار مجلس الأمن الدولي، فلنفرض على لبنان، شروط السلامة الإسرائيلية: نرسم الخط الأزرق. ورُسم. ننزل الجيش إلى الجنوب. طولب به وما زال. ننزع سلاح المقاومة. وهذا هو مربط الخيل الإسرائيلي/ الدولي... الحجة: إسرائيل نفذت شأناً دولياً، فعلى لبنان أن يمتثل للرغبات الدولية، التي ترجمت أخيراً، بالقرار ١٥٥٩.

لنعد إلى الموضوع. لبنانياً، وربما في أوساط عربية متذاكية، استبعاد لهزيمة إسرائيل القوية. لا تستبعد نظرية الصفقة. فالرصيد اللبناني المعمول به لدى فئة لبنانية، مموَّل من خزان العجز والضعف. فالعجز اللبناني تقليد، والاستبكاء العربي عريق، فكيف تكسر هذه القاعدة الذهبية؟ إذاً، يستحيل على المقاومة، في لبنان المنهك والمنتهك بحروبه الداخلية والعربية، أن تحقق هذا الإنجاز. إن في الأمر إن...

لن نحاسب الضعفاء... فالضعف يعفي صاحبه: أما والمقاومة قوية، فلنسألها بجرأة عما ارتكبته في لبنان. فلنسألها أيضاً، من أين لك هذا؟ وعلى ضوء ذلك حاكموها، علانية.

المقاومة والمال الحرام

الأسئلة غير بريئة أبداً، وهذه عينة منها:

ما مقدار مسؤولية المقاومة في اهتراء السلطة؟ لماذا وقفت حاجزاً أمام تطبيق اتفاق الطائف؟ لماذا لم تنتظم كسواها في معسكر الدولة، وتقدم سلاحها، كما فعلت الميليشيات المتقاتلة في الحرب؟ ما حجم ما استنزفته المقاومة من بنود الموازنة السنوية اللبنانية،

بالرواتب والإنفاق؟ لماذا تمنعت عن تسديد ثمن منشآتها على الأملاك البحرية والنهرية الممتدة على طول الحدود اللبنانية البحرية؟ لماذا سكتت عن حلف جهنمي مالي بين أهل السلطة وأهل المعارضة (الجملة هذه غير صحيحة أبداً، ولكن، لا بد منها، للاتهام) لإدارة الشأن العام كالشأن الخاص، وبرخص كبير؟ ما حجم مسؤولية المقاومة في هجرة الشباب اللبناني، وزحفه غير المقدس للهروب من البطالة وانسداد الأفق؟ ما منسوب الإساءات التي أصابت الجامعة اللبنانية التي تعامل كسبايا حرب سخية التجدد؟

كل الاقتصاد الريعي اللبناني من تأليفها؟ والزراعات البديلة من تصديقها؟ يجب ألا تتهرب المقاومة من الإجابة عن حجم مسؤوليتها في ترتيب ٤٠ مليار دولار ديناً على اللبنانيين؟ عليها أن تجيب عن ذلك صراحة، وبالأرقام، حتى لا تبقى التهمة في خانة من وعد بازدهار لبناني... و«سندهش العالم».

ثم لا مفر من تحميلها تبعات انقطاع الكهرباء، والالتزامات، والتشغيل، والفيول، والشركات القابضة على عنق المعامل وأطراف الشبكة. أليست هي السبب في الارتكابات التي حصلت، إنشاء وتعاقداً ومعامل على الغاز، لأنها استدرجت العدو لقصف المحطات والمنشآت الكهربائية؟ يلزم أن تقدم كشفاً بما أصابها من منافع، كي لا تحمل السلطة والمعارضة معها، العمولات والهدر الذي صاحب كل عقد.

ثم... وهنا بيت المال الحرام: كم مرة انتهكت صندوق المهجرين ومجلس الجنوب، ومجلس الإنماء والإعمار؟

قولوها بالفم الملآن. ما دور المقاومة الناصع في كل هذه الظلمة المالية الدامسة؟ دلوا على كفها الأبيض، وسط الأيادي السود، التي تعاملت مع اللبنانيين على قاعدة الولاء المافيوزي. أفصحوا عن دفاتركم الحسابية، وافتعلوا الجردة التي تريدون، فإن رأيتم خللاً في عمل المقاومة، حاسبوها. لا تعتبروها «مافيا مقاومة» كما تتعاملون مع مافيات الدواء، منذ ذلك المقاوم الشرس الذي قضى قبل أن يُسقط شعرة من هذه المافيا. هل تتذكرون الوزير الدكتور؟ طربيه؟

دلونا على فضائح المقاومة لنحاسبها بقسوة. لنقول لها، إنّ غدك لعسير. فلتكن عبرة لنفسها. لأن لبنان اعتاد أن يعفو عن المرتكبين سياسياً واقتصادياً وأمنياً وقضائياً ومالياً وتربوياً وصحياً. اعتاد أن يبيض صفحتهم، ويعيدهم إلينا، إما زعماء طوائف، أو وزراء ثوابت، أو من أرومات عائلية سياسية، أو قيادات سياسية، لا تتخلى عنها المرجعيات الدينية. هذا العفو لا نريده للمقاومة.

حتى لو عفوتم عن المرتكبين المتربعين على منصة السلطة أو على منابر المعارضة، نريدكم أن تحاسبوا المقاومة، لأنها مسؤولة وقوية، وليست فوق الحساب.

ديون المقاومة

لعل التهمة التي توجه إلى المقاومة، هي أنها تركت لسواها أن يحمي منجزاتها، فعاث فيها فساداً وسلطة وتحالفاً واستهانة.

هناك من يرى أن المقاومة أخلّت بالتوازن، لأن سلاحها لم يُجمع أسوة بسلاح الميليشيات. حاسبوها. قولوا لها ذلك. لعل الجواب الذي يأتيكم، هو أن سلاح المقاومة، كان سلاح مقاومة وتحرير، لم

يكن للتشبيح، أو لفرض الخوة، أو للاستعراض (باستثناء الاستعراضات المناسباتية المنظمة) أو للاقتتال الداخلي، أو لمحاصرة المخيمات الفلسطينية، أو لغرض سياسي أو انتخابي.

هل استقبلت روجيه تمرز مثلاً، وقبضت منه ملايين الدولارات، كما تشاطر زعماء الميليشيات وأمراء الحرب السياسة اليوم، مجتمعين في موالاة أو معارضة. الأرقام تشيب رأس الشعر. رجاء لا تحاسبوهم عليها. ذلك أنه يحق للمتنبي ما لا يحق لغيره، حتى في سوقه الشهير.

إن إسرائيل تدّعي قداسة السلاح. إذا كان ذلك كذلك، فماذا نقول عن سلاح المقاومة، وتحديداً بعد العام ١٩٩٢، أي بعد زوال حالات الحرب اللبنانية المعلنة؟

ما رأيكم بتهمة اللاجدوى، وتعريض لبنان للخسائر؟

حسناً. ارفعوا ذلك عالياً. قولوا للمقاومة، إنك السبب في انتكاسة مشروع إعادة البناء والإعمار. نسيان ما كتبه جورج قرم وكمال حمدان وهنري إده يعتبر اهانة موضوعية. فليس صحيحاً أن عدوان إسرائيل في العام ١٩٩٦ هو الذي أوقف عجلة المشروع الطموح للبنان الشرق الأوسطي. وقد يكون من الغبن القول إن المقاومة تتحمل تلك المسؤولية، ذلك أن سقوط أوسلو، الذي انهار في كامب ديفيد، لم يكن بسبب مقاومة الاحتلال في لبنان، بقدر ما كان نتيجة طبيعية لفشل مشروع «السلام» (التسوية أفضل تعبيراً وأكثر دقة). ألم يكن الرهان على لبنان في المشروع الشرق الأوسطي هو الخطيئة؟

تهمة الإسلامية

فلنفتح الدفاتر والنوايا كذلك. فلنعلنها على الملأ، حتى إذا اتخذتم قرارا بإطاحتها، كان لديكم الجرأة على مواجهتها بالحقيقة، لا بادعاء حمايتها مؤقتاً، بانتظار سفكها دولياً ونقل النصيحة لها بضرورة انتحارها بيدها، (تسليم سلاحها) أو نحرها بأيد كثيرة.

ليس مطلوباً معاملة مستحيلة بالمثل، لطبقة سياسية متعالية عن المحاسبة.

بماذا تتهم المقاومة؟

بإسلاميتها؟ بشيعيتها؟

حسناً. فلنقارن الهيئات والمؤسسات اللبنانية، القائمة أو الموروثة. ماذا يقال عن «قرنة شهوان» (حية ترزق)؟ ماذا تسمى خلية حمد (المرحومة غب الطلب)؟ ماذا يقال عن الاصطفاف اللبناني خلف رهط من سياسيين لم يحاسَبوا يوماً على ما ارتكبوه، وأعلنوا عنه، وتراشقوا به؟ ثم، هل المقامات اللبنانية، مقامات علمانية؟ (عجيب هذا المزج البديهي بين الطائفي والوطني! منطقياً، الواحد يلغي الآخر. ومع ذلك، يُجمع ما بين الاثنين، جمعاً تلقائياً، ويستقيم النظام اللبناني).

كان يمكن أن تكون الإسلامية نعتاً غير مناسب، لو أن لبنان قدم، عبر تجاربه وأحزابه ومجالسه المتعاقبة، نموذجاً لاطائفياً، أو نموذجاً مدنياً يحتذى. كان يمكن أن تلام مقاومة بتلوين ديني أو مذهبي، لو أن الأحزاب اللاطائفية، لم تتفيأ الخنادق الطائفية في الحرب، أو لم

تشارك ظلها في زمن السلم. كأن الطائفية هي المركز «واللاطائفية»، تدور حولها اقتراباً، في عملية استفادة طردية، غير جذبية.

أما وأن الحالة اللبنانية تتمتع بحيوية طائفية، واقتسام طائفي، فإنه من الطبيعي، أن تُحتضن المقاومة من أبناء طائفتها أساساً، وبعض الطالقين من طوائفهم عرضاً. غير أن إسلامية المقاومة، لم تلغ لبنانيتها، ميداناً وعملاً ونتائج. ذلك أن التحرير، لم يكن لاقتسام السلطة، أو لتقوية مواقع المقاومة في بنية الدولة. كان التحرير من أجل دحر الاحتلال واستعادة السيادة.

لو كانت المقاومة شيوعية أو قومية أو... فهل تسقط عنها لبنانيتها؟ إذن، فلنسقط عن «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في فلسطين، الهوية الفلسطينية. نظرة دقيقة للحالة المقاومة في لبنان، تظهر أنها تبنّت هذا في الخصوصية اللبنانية، وهذا هو سر نجاحها. لم تنزع إلى عالمية مجنونة وساقطة، أو استبدادية تكفيرية قاتلة، أو انقسام لمجتمع وسلطة. عاشت المقاومة في الدولة، إلى جانب الدولة، ومع الدولة، وفي ظل الدولة، وأمام الدولة، وخلف الدولة. أقامت علاقة نموذجية بين نقيضين: الدولة ومنطقها، والمقاومة ومستلزماتها. وهذا ما أخفقت نظريات كثيرة في تطبيقه، عندما حاولت إيجاد المخرج النظري للعلاقة الممكنة بين الدولة والثورة في لبنان. كان التنظير لاحقاً على التجربة: تعايشت الدولة والمقاومة في انسجام وتناغم وصل إلى حد التلاحم. فلماذا نفرط بهذه التجربة الفريدة، بدلاً من الاستفادة في تعميمها؟ ولماذا ندخل غرفة العمليات الدولية، حيث صدر أمر بإعدام المقاومة، وبالتالي، تصفية لبنان على الطريقة العراقية؟

الانتصار الناقص

لعل التهمة الحقيقية هي أن المقاومة بعد التحرير، وقد باتت أقوى، تفسح المجال أمام اختلال خطير في موازين القوى الداخلية، المرتبطة بموازين قوى خارجية مهيمنة.

حسناً أيضاً. فلنتهم ولنناقش كذلك.

لم يعرف العالم حركة مقاومة فازت في ميدان التحرير، من دون أن تمد السجادة الحمراء لتصل إلى تكوين سلطة، أو لترث سلطة. إما لتقيم نظامها السياسي، أو مكافأة لنضالها، أو حراسة لمنجزاتها، أو... لتنفيذ مشروعها السياسي بعد التحرير. وتنشيطاً للذاكرة، «الفيتكونغ» و«جبهة التحرير الجزائرية» و«الساندينيون» في نيكاراغوا، أنجزوا انتصاراً وأقاموا سلطة. وحدها هذه المقاومة، انصرفت إلى مهمة التحرير أولاً وعاشراً. ولما وصلت إلى غايتها، أو أقل قليلاً، في ٢٥ أيار عام ألفين، بشهدائها ومجاهديها وجرحاها وأبطالها وصبرها وجهدها وعرقها ودمها، عادت إلى مواقعها السابقة على التحرير. لم تطلب سلطة. لم تسرق موقعاً. لم تتسلبط على صندوق. لم تطلب مغانم... لم تسع إلى تعديل موازين القوى. فتحت انتصارها لمن يريد أن ينتسب إليه من دون أن يدفع ثمناً، فلساً أو نقطة حبر.

لماذا لم تتسلم زمام السلطة، وتشارك فيها أسوة بغيرها من المقاومات التي اعتلت السلطة وأفسدتها؟

الجواب متعدد. قد يكون من الأفضل وصف الوقائع لا تفسير النوايا. هذه المقاومة لم تكن مشروع سلطة، بل مشروع تحرير. كأن منطقها

كان يقول: «تعالوا نحرر الأرض أولاً.. ولنختلف فيما بعد على كل شيء». فالحرية شرط للحوار وتنظيم الخلاف.

هل هذا مقنع؟ إذا لم يكن كذلك، قولوا بصوت مرتفع، أين اختل التوازن الطائفي؟ هل التوازن يقضي بأن التحرير في لبنان تحريران: واحد من إسرائيل، تقوم به المقاومة، وآخر من سورية، تقوم به قوى متجذرة في الاعتراض على المقاومة ومن يدعمها.

هل هنا بيت القصيد؟ فالاختلال ليس إلا باباً للعبور إلى كتابة تاريخين، تاريخ مقاومة إسرائيل، وتاريخ مقاومة سورية. تاريخ يلغي تاريخاً.

علاقة استقواء ضد العدو فقط

تسهل الاتهامات بالجملة، على علاقة سورية بلبنان، أو، تحديداً، على علاقة سورية ببعض من اختارتهم، وقلّما اختاروها عن قناعة، من الطبقة السياسية.

هل تندرج المقاومة في صياغة هذه التهمة؟

قليلاً من التأمل والوضوح. علاقة سورية بالمقاومة، كانت العلاقة المميزة اللائقة، على مستوى الأغراض والأهداف والاحتضان والوفاء. لم نر المقاومة تزحف إلى سورية، طلباً لمنصب أو مغنم أو... كانت في طريقها إلى التحرير، بحاجة إلى حماية فوجدتها، وكانت بحاجة إلى تنسيق فوجدته، وإلى دعم فرحّبت به، وإلى تحمل مسؤولية مشتركة، فثابرت عليه. نموذج من العلاقات بين دولة ومقاومة. لا جوائز ترضية، انتخابية أو اقتصادية أو مالية. دعم

للمزيد من الكفاح والنضال بهدف التحرير ودحر الاحتلال.

لم نسمع أبداً، أن صفقة أبرمت بين سورية والمقاومة على شأن لبناني كان من اختصاص الطبقة السياسية. بل، ربما يعرف الكثيرون أنها كانت تضحي بقوتها، كي تستقيم العلاقات السلمية بين أبناء الطائفة واللبنانيين.

الشكوى المرتفعة، لم تكن على مستوى هذه العلاقة النموذج بين سورية والمقاومة، بل هي على المستوى المتدني من العلاقات الأمنية السياسية الاقتصادية، كأسلوب منافع متبادلة، بين طرفين مستفيدين من حالة الفساد والتسيب.

هل كانت المقاومة منزهة عن هذه المنزلة الوضيعة؟

الأكثرية تظن ذلك، وأحياناً تجزم، ومن له شبهة عليها، فليعلنها. كانت سورية نصيراً للمقاومة، وكانت المقاومة عمقاً لسورية، من حيث القوة الضرورية، للوقوف في وجه الضغوطات الكثيرة على سورية، ما عُبر عنه بتلازم المسارين والهدفين.

تنشيطاً للذاكرة: اتفاق نيسان، المتوازن مع العدو، صاغته دمشق بصبر وأناة وعناد، مترافقاً مع صمود بطولي في لبنان.

وهناك من يصرخ: «لماذا وحدنا؟». من حقهم أن يرفعوا الصوت عالياً. الخرس العربي قاتل. العجز العربي مُضنٍ. الكسل العربي مملّ... لماذا على لبنان أن يضج بمقاومته؟ هذا جدل كان يصلح قبل التحرير. أما وقد أنجز التحرير، باستثناء مزارع شبعا (المحرومة من انتماء لبناني ناصع)، فبات هذا الجدل بيزنطياً. جدوى

المقاومة، أنها حررت جنوب لبنان، وكان لها من الحكمة، أن اعترفت بوقائع السياسة الدولية، غير القابلة للاختراق، فوقفت عند خطوط الهدنة، لكنها، أسست لحالة نهوض فلسطينية، اشتعلت في انتفاضة الأقصى، وأرهصت في حجر أصاب رأس رئيس حكومة فرنسا آنذاك ليونيل جوسبان، الذي اختار منبر الجامعة في بير زيت، ليتهم المقاومة الإسلامية بالإرهاب.

استحق العقوبة. كان ذلك درساً.

إن اختلال التوازن في لبنان حصل بعد الحرب، وفي اتفاق الطائف، وفي طبقة سياسية تعمّدت اختيار ما يناسبها من هذا الاتفاق. المقاومة نأت بنفسها عن ذلك. تعمّدت الابتعاد عن هذه المهمة. كانت مشغولة بتأمين سلامة الطريق إلى قضيتها: التحرير، والتي تطورت بشكل طبيعي بعد ذلك، إلى تحصين قوتها للدفاع عن لبنان، إزاء أي عدوان قد تشنه إسرائيل.

مقاومة تهدد لبنان

بماذا يمكن أن تتهم المقاومة أيضاً؟

الأخطر، أنها متهمة بتعريض سلامة وأمن لبنان للخطر مستقبلاً، لأن هناك حملة دولية على الإرهاب. وحزب الله، والمقاومة الإسلامية، مرشحان لاحتلال اللائحة الدولية، بعد تبوئهما مراكز هامة في الأجندة الأميركية.

لهذا السبب، وصدّاً لكل محاولة أميركية غير مرتدة، عن لبنان وسورية، وإراحة للبنان من معركة غير متكافئة، فإن من الحكمة

كما يرى بعض المعترضين على سلاح المقاومة، دولياً وعربياً ولبنانياً، أن تتخلى المقاومة عن سلاحها، خصوصا أنها أنهت مهمة تحرير لبنان، وأفرجت عن معظم السجناء اللبنانيين، مقابل أن تتولى الأسرة الدولية بت مصير مزارع شبعا، بعد لبننتها على أيدي السوريين الممتنعين حتى اللحظة، عن تقديم أوراق عمادة لبنانية لهذه الأراضي. فالمشكلة في مزارع شبعا، أنها رهينة الرغبة السورية بالاستغماء.

فماذا ستربح المقاومة إذا استجلبت بمواقفها المتعنتة، الويل الأميركي إلى لبنان. فالرهان على حكمة المقاومة، وعلى تعقلها، كي لا يفقد لبنان توازنه الداخلي. و«المعارضة» حالياً، كفيلة بحماية المقاومة، بعد انخراطها السياسي في مشروع الدولة المسالمة، بلا اتفاقية سلام.

نفاق على المقاومة

هذا منطق يلبس ثياب الحكمة، والواقعية، ولكنه منطق مراء جداً.

أولاً: هذه المطالب ارتفعت قبل التحرير، من بعض المعارضة، خصوصاً أنها كانت ترى أن خطر المقاومة على لبنان أكبر من خطر الاحتلال الإسرائيلي. فالثمن الذي يدفعه لبنان من كل اعتداء على بناه التحتية، أكبر بكثير مما تخسره إسرائيل في جنوب لبنان. كانت المعادلة كمية. ما جدوى المقاومة؟ هكذا قيل، وارتفعت مطالب لبنانية متناغمة مع مطالب أميركية وإسرائيلية، قيلت علناً، ومورس ضغط من أجل تنفيذها، تطالب بنزع سلاح المقاومة، وإرسال الجيش إلى الجنوب، واستعادة السيادة من المقاومة.

تنشيطاً للذاكرة: راقبوا تصريحات المعارضين اليوم. وتصريحات وخطب بعض المستجدّين في المعارضة: المضمون: انتهى الاحتلال، فلماذا تبقى المقاومة؟

ثانياً: لا يعوز العقل، لدى المعترض أساساً على وجود المقاومة، إيجاد المقدمات لذلك. فإذا كانت النتيجة المطلوبة نزع سلاح المقاومة، فهاكم المقدمات لذلك: ما جدوى السلاح غير المتكافئ؟ لبنان يدفع ثمناً غالياً فوق طاقته. لبنان يتحمل عبئاً عربياً تخلى عنه العروبيون. التحرير أنجز فلمَ السلاح. الهجمة كبيرة فالمطلوب النجاة. كل المقدمات تصلح لنتيجة وحيدة: نزع سلاح المقاومة.

الغيرة والحكمة المتفشية حالياً لحماية المقاومة، تدفعها إلى القبول بوليمة السلطة اللبنانية. ولكن، للذاكرة، عندما تدخلت المقاومة، عبر حزب الله، في مسألة مطلبية، أو في جسر الأوزاعي، ألم تخرج الألسنة لتطالب المقاومة بالانصراف إلى المقاومة، بدلاً من الدخول في الزواريب السياسية اللبنانية؟

في المقاومة، يريدونها سياسية فقط.

في السياسة، يريدونها مقاومة منزهة عن السياسة.

أليس في ذلك قمة التهافت؟

كأن المطلوب أن تخرج المقاومة من المقاومة والسياسة معاً.

ثالثاً: إن المضحك، وفق ما يقوله يساري سابق ولاحق، أن الذين يدّعون تأمين الحماية للمقاومة بعد نزع سلاحها، لا سلاح عندهم

ليقوموا بذلك. مثلاً، مَن من الموالاة أو من عتاة المعارضة سيحمي المقاومة؟ هل من يتبوأ الفي صوت أو عشرة آلاف صوت (مع التجيير)، يستطيع أن يؤمن الحماية، على فرض أنه يريد ذلك؟

المقاومة تحمي نفسها بنفسها، وبالتفاف فئات شعبية، مع أغلبية طائفية، حولها. الآخرون بحاجة إلى حمايتها.

ولكن هذا الرأي يمكن دحضه، والاتهام يمكن إثبات عكسه، ذلك أن عدداً كبيراً من المعارضة يستطيع مثلاً الدفاع عن المقاومة ولا يفعل ذلك. إن تأييد القرار ١٥٥٩ والركوب في قاطرته، يفضيان في النهاية إلى انتزاع سلاح المقاومة. لم تسمع المقاومة أحداً، من أصحاب الباع الطويل في العلاقات الدولية والتأثير الدولي يدافع عنها.

لم يدافع أحد عن المقاومة في المحافل الدولية.

جل ما قيل: نحن نعترف بالمقاومة... ولكن العالم لا يعترف بها. ونحن مع العالم لا مع أنفسنا.

وهذا احتضان قبل الطعن.

متى تشرّع المقاومة أبوابها؟

١ مقدمة في صيغة أسئلة:

أتحتاج المقاومة إلى ثقافة من خارجها، لباساً ترتديه، أم هي بحاجة إلى إنتاج ثقافتها، فتنضح معرفة وإبداعاً ووعياً وفناً؟

أتحتاج المقاومة إلى استعارة الثقافة من مطارح يتم فيها القول، وإنتاج المعرفة، وتنشيط الفكر والعقل وتفريخ الإبداعات، أم هي مطالبة بأن تكون مرجعية للوعي والمعرفة والإبداع فتنتج من واقعها وتجربتها وأفقها، ثقافة غنية وعميقة، تسعى إلى نشر مفاهيم وقيم وإبداعات جديدة، تؤسس لأفق مستقبلي؟ أي، هل المطلوب ثقافة من خارجها أم ثقافة منها؟

أتحتاج المقاومة، فقط، إلى مناهل فقهية، وتراثات دينية، واجتهادات متعددة، لتضفي على ذاتها شرعية الضرورة والاستمرار، أم هي

بحاجة، أيضاً، إلى احتضان مساهمات ثقافة مقاومة، تنهل من مناهل مدنية وتاريخية واجتماعية وسياسية، متعددة الانتماءات والمرجعيات؟ أتحتاج المقاومة الإسلامية تحديداً، إلى بقائها إسلامية، نقية التشيّع، أم هي بحاجة، لصيانة ذاتها، كمقاومة، إلى تشكيل هوية وطنية عامة، لا تلغي إسلاميتها ولا تلزمها بالإسلامية حصراً؟

أتحتاج المقاومة، كي تكون لبنانية، انتماءً واحتضاناً، إلى فتح الأبواب وتشريعها، للقوى اللبنانية المقاومة، الموزعة في الطوائف كافة، وفي التجمعات المدنية المتعددة، والمنابر الجامعية والإعلامية والسياسية الكثيرة؟

أتحتاج المقاومة، كي تزيد من صلابة شبكة الأمان السياسي والوطني حولها، إلى جعل المؤسسات الناشطة إلى جانب المقاومة، أمكنة صالحة للإنتاج الثقافي، إعلاماً، وتاريخاً، ومعرفة، وسياسة؟

ألا تخشى المقاومة الراهنة، في وضعيتها الحالية، أن تعزلها (ثقافة الطوائفيات، التي أنزلت قداسة التحرير وأدواته الرائعة، إلى مستوى سلاح ميليشيا لطائفة مخيفة، (خاضعة لإملاءات سورية وإيران)؟

هل المقاومة، راهناً، ترشح نفسها لمهمة إنتاج ثقافة وطنية وقومية، أم أنها، لثقتها المفرطة بذاتيتها، أو باكتفائها من مؤونة الدين، تبقى محصنة بالثقافة الدينية والعقائد والمناهل الفقهية، معتمدة على نجاح تجربتها الرائع في إنجاز التحرير الناصع، معتبرة، بجدارة، أن هذه الينابيع الثرية، أوجدت إنساناً مؤمناً وعقيدياً وملتزماً ومنظماً تنظيماً فائق الدقة والاختصاص، مضحياً بلا ثمن، لا ينتظر مكافأة، غير جزاء الآخرة، وجزاء التماثل مع القيم التي وشمت روحه بأصالة الجهاد؟

٢ في ما يشبه العرض:

نضحت المقاومة الإسلامية بثقافتها الدينية التي لاقتها قلوب شيعية الهوى والمنبت والتنشئة، متعطشة لسماع نداءاتها وإلحاحاتها العملية. فثقافة المقاومة، هي، في نسبة مرتفعة، ثقافة مرجعها المذهبي الديني الخاص.

حتى اللحظة، لم تنضح المقاومة بغير مائها الروحي، وهويتها الدينية. ومثل هذا الأمر، لا يعيبها، ولا يقلل أبداً من مكانتها، فلقد أثبتت هذه العقدنة الثقافية جدارتها في تبنّي هويتها الدينية فتدثرتها إيماناً وعملاً بلغ حد الإنجاز والإعجاز. فالمقاومة، في هذا الثلاثي: العقيدة، الرسائل، الغايات، مثال يحتذى، ولا تحتذي سواها. فهي البرهان المؤكد، لا التجربة التي لم تبلغ تمامها.

تجارب المقاومة، بصيغها القومية والماركسية والوطنية، قدمت تجارب وخبرات. أضافت كثيراً. مهّدت لسواها. تركت معالم وبصمات، لكنها قصّرت عن أن تكون النموذج. قصّرت عن الإنجاز الكبير. إلا أن لها في إنجاز المقاومة الإسلامية، مساهمات ليست قابلة للنسيان. ربما اعتور تلك المقاومات المتعددة، نقص في الأدوات والظروف والوضوح والتفرغ لهدف واحد، وربما تضافرت مصاعب كثيرة من داخلها ومن خارجها، حرمتها نعمة الانتصار على العدو... لكنها، قاتلت العدو بشراسة، ضحت حتى الشهادة. دماء شهدائها تشهد على صمودها في بيروت والجبل والجنوب والبقاع.

غير أنها لم تحظ بنعمة الانتصار على العدو الصهيوني. تلك كانت

نتاج مسيرة أخرى، كللها حزب الله، بالانتصار الأول، المثبت والمؤكد.

تعرضت المقاومة اللبنانية، منذ بداياتها، لاعتداءات حرّضت عليها (ثقافة) الطوائف. أو، ربما، عرّضت المقاومة اللبنانية نفسها ومعها الفلسطينية، لهذه الاعتداءات أو استدرجت، بسوء فهمها وسلوكها وأدائها، اعتداءات الطوائف الخائفة، أو المخوَّفة. فغرقت في وحول الأزقة الطائفية، ولم تتفرغ لقتال العدو. كانت تقاتله، عندما يتسنى لها ذلك، بين معركة طائفة وأخرى، على جبهات الداخل المتفرغة لتجويف المقاومة من هويتها الأساس. وانتهت تلك المقاومة، عندما تسلمت المقاومة الإسلامية، مهمة القتال أولاً وأخيراً، وتوظيف كل جهة لمنازلة الاحتلال، والابتعاد ما أمكن، عن كل منزلق يحرف وجهة جهدها عن قتال الصهيونية.

وها قد أشرفت المقاومة الإسلامية على استحقاق آخر، هو استحقاق الاستمرار، لضرورات استراتيجية ودفاعية. إلا أن هذا الاستحقاق، الوطني في الأساس، يتعرض راهناً، لثقافة طوائفية لم تعد مصالح أهلها تنظر إلى فعل مقاوم، (إذ ولّى زمن الاحتلال وفق ظنهم) ولا هي تنظر إلى السلاح كأداة دفاع عن الإنجاز والمصالح الوطنية والقومية، بل باتت ترى إلى هذا السلاح، سلاحاً بيد طائفة، كثيفة العدد، مطيعة لقيادتها طاعة عمياء، تتبعها على قاعدة التكليف الشرعي، وبالتالي، فهي مخيفة باستجابتها وولائها لإملاءات خارجية، إيرانية وسورية تحديداً.

عندما تستدرج المقاومة للدفاع عن وجودها لا عن جدوى هدفها وقيمته وصلاحيته وضرورته، فإنها مضطرة إلى أن تخوض هذه

المعركة، التي تفرض شروطها (ثقافة) الطوائفيات.

وللطوائفيات (ثقافات) تدميرية، منتشرة في التصريحات ووسائل الإعلام والمؤتمرات الصحافية والندوات واللقاءات، بل جلّ الحركة السياسية، يدور حول محور أساس: نزع سلاح المقاومة. فهذه المقاومة، انتهت وظيفتها، وبات سلاحها غير مرغوب فيه، بل مرفوض، ومطلوب أن يسلم إلى الدولة. ولأن لبنان، وفق عرفهم، هو لبنان الطوائف (المتحدة) أو (الملتحدة)، فإنه من الضروري أن تتساوى في ما بينها، فلا تكون الطائفة الشيعية تمتهنة السلاح، فيما الطوائف الأخرى، تمتهن الحفاظ على الكيان أو تسعى إلى بناء الدولة.

هذه (الثقافات) الطوائفية، شديدة التبسيط، سهلة النفاذ إلى نفوس متعطشة بجشع لا يشبع إلى الغذاء الطائفي، الذي تزداد فيه السعرات الغذائية، بمقدار ما تحمل من منشطات عدائية إزاء الطوائف الأخرى.

وهكذا، استبدلت هذه (الثقافات) الطائفية في لبنان، العداء لإسرائيل، بعداء جديد لسورية، نظاماً ودولة وشعباً، وصل إلى حدود الممارسة العنصرية. كما وصلت هذه الثقافات إلى تخوم تخوين المقاومة، عندما لم تجد لها وظيفة، غير أن تكون خادمة لاستراتيجيات إقليمية، حق الإمرة فيها للجمهورية الإسلامية الإيرانية (الفرس) وسورية (العلويين).

هدفت هذه الحملات إلى تجويف الإطار الوطني للمقاومة، لحصره في حدود الطائفة الشيعية. فكيف تدافع المقاومة، بثقافتها، عن

مشروعيتها الوطنية، فيما هي، منبعاً وبنية وتنظيماً وحركة، متحصنة بشيعيتها، مذهباً وجمهوراً.

٣ الانتقال من الطائفي إلى الوطني:

ثقافة المقاومة الإسلامية، حصن يصون الداخل. يحافظ على قوة المقاومة العسكرية والتنظيمية، ويزيد فاعلية العمل تأهيلاً، عدة وعديداً.

قد تتعثر هذه الثقافة أمام العدوان (الثقافي) القادم من خارج. فالطوائف في لبنان، كما برهنت التجارب منذ قرن ونيف، لا تحمي أحداً. فهي غالباً، تضحّي بأبنائها، فكيف تحافظ على قضايا تتبنّاها طوائف أخرى، حتى لو كانت القضايا، في مرتبة القداسة، أو في المراتب العليا من الأهمية، وطنياً وقومياً وإنسانياً وأخلاقياً.

الطوائف في لبنان لا تحمي المقاومة ولن تحميها. تتحين الفرص كي تنقضّ عليها، ولا محرمات أمامها. أزالت هذه الثقافة عن وجه أميركا بشاعتها، صارت صديقاً مخلصاً غيوراً، لا يهمه إلا مصلحة لبنان. الأشقاء العرب، الغارقون في التسوية والفساد والظلم، باتوا معيناً للبنان، كي يتخلص من (ورطة) المقاومة تماماً، كما يتبرعون لتخليص الفلسطينيين من ورطة الديموقراطية التي أنجبت سلطة لحماس.

كل شيء بات مسموحاً (للثقافات) الطوائفية المدمرة والمتوحشة. فكيف تحمي المقاومة ذاتها. أبخطابها الإسلامي، الذي يلزم الآخرين باعتباره خطاباً طائفياً، وعلى قياس الشيعة في لبنان، وتحالفاتهم المتشيعة خارج لبنان؟

لذا... قد يكون مجدياً أن تسأل المقاومة الإسلامية نفسها، بأي ثقافة أواجه (ثقافات) العدوان الطائفي. أبصورة الخطاب نفسه، أم بأسلوب ومضمون الخطاب الوطني، الذي لا يخرج من حضن المذهبية، بل من أحضان الوطنية الجامعة، بكل التيارات والطوائف.

لا تُحمى المقاومة إلا بثقافة مؤسسة على الحق الوطني والقومي. وهذه الثقافة، لا تُستدرج من الخارج، لا تباع ولا تشرى. إنها نتاج مجموع داخل بنى المقاومة الثقافية والسياسية والاجتماعية والإعلامية والأدبية.

فهل يمكن صياغة الشعار كما يلي:

(حزب الله) هو حزب العقيدة الدينية وهو حر في التزامها بحذافيرها والتقيد بمقتضياتها. أما المقاومة، فهي (حزب الوطن). وكي تكون كذلك، عليها أن تبدع ثقافتها الوطنية الجامعة.

(حزب الله) هو حزب الأكثرية الشيعية. ويخوض سياسته في الداخل، وفق موازين القوى، وحصص الطوائف. أما المقاومة، فهي حزب الأكثرية الوطنية، فهل نبلغ هذا الهدف؟

٤ الممكن الصعب؟

ليست الثقافة مجرد خطاب سياسي أو فكري. الثقافة هي مؤسسة منتجة، مفكرة، مبدعة، منطلقة. ليست الثقافة رأياً أو كتاباً، بل هي تيار متنوع متعدد ناشط، يساهم في تغذية قضية المقاومة، تربية وإعلاماً واختصاصاً وتفكيراً وسياسة وتنشئة. الثقافة المطلوبة، هي

ثقافة مقاومة، لترصيد المجتمع بالقوة والمنعة والثقة والتفاؤل والمسؤولية والقرار.

إذاً، الثقافة المطلوبة، هي ثقافة مقاومة، تنتجها مؤسسات ثقافية نشطة. ولدى المقاومة الإسلامية العديد من المؤسسات غير العسكرية والأمنية: إعلامية وتربوية واجتماعية. لكنها مؤسسات حكر على الحزبيين، أو على الشيعة تحديداً. وعليه، فإن هذه المؤسسات لا تنضح إلا بثقافة مذهب ودين، مهما حاولت أن تكون ثقافة جامعة ووطنية.

إن ثقافة المقاومة، راهناً، هي ثقافة حزب، لا ثقافة وطن. الحزب راهناً، ومن خلال تاريخه، هو حزب الشيعة في لبنان.

أليس من الواجب أن تفتح المقاومة أبواب مؤسساتها، لغير الشيعة، أو لغير الحزبيين، فتحضن شرائح من فئات لبنانية منتجة بالفكر والعلم والإعلام والتربية؟

إن مشهد المقاومة في مؤسسات الحزب، مشهد من لون واحد. والثقافة الوطنية التي تحتاج إليها المقاومة، هي ثقافة مضادة للطوائفيات ونافية لها.

إذا كانت المقاومة تخشى على هويتها الدينية والمذهبية، فإن خصوصيتها هذه ستكون مشكلة لها ولسواها. وإذا كانت المقاومة، لم تشعر بعد، بأنها بحاجة إلى حضن أوسع من الطائفة، فإنها تجازف بالدخول في الأزقة اللبنانية المجهزة والجاهزة بكل أدوات الاستنزاف. وإذا كانت المقاومة تعي أن شبكة أمانها للاستمرار في حماية المصالح العليا للوطن، راهناً ومستقبلاً، تتطلب الانفتاح

والاحتضان والتفاعل وإيجاد الأطر العامة، فإنها مدعوة لترجمة هذا الوعي عبر المؤسسات.

هل هذا ممكن؟

إنه قرار تتخذه المقاومة، بأن يكون ظهرها محمياً ببنية حزبية متراصة، وأن يكون صدرها محمياً بثقافة وطنية عامة تأخذ على عاتقها إسقاط الطوائفيات الهمجية، وتبديد (ثقافاتها).

إنه قرار لا يضير الحزب أن يقدم عليه، فتكون مؤسسات المقاومة المدنية، إسلامية ومسيحية ومتعددة المذاهب. على أن الجامع بينها، ليس صفقة طوائف، بل المساهمة في إنتاج ثقافة جديدة، يحتاج إليها لبنان، هي ثقافة المقاومة، ثقافة مدنية سياسية جامعة.

قبل أن تضيع الفرصة... هناك قبضات تقرع الأبواب من الخارج، فهل من يد تفتح الأبواب؟

ليس مستحباً انتظار غودو طويلاً.

بوليمولوجيا

وداعاً للسلاح

I

لبنان في خطر بسبب قوته؟

هل يسلم لبنان إذا استعاد مقولة: قوة لبنان في ضعفه، وليتحمَّل بعد ذلك تبعات هذا الضعف؟

إذا كانت قوة لبنان خطراً عليه، وضعف لبنان أشدّ خطورة فهل هناك منزلة بين المنزلتين، أو، استعارة من ابن سينا، هل يصير لبنان «دولة معلّقة في الفضاء» الإقليمي والدولي، وتتحوَّل بمعجزة العزل والانعزال والتحصين الدولي، إلى سويسرا، في كامل حيادها؟ وهل يرضى اللبنانيون، وفق أهواء طوائفهم بالاستقالة من نوازعهم الإقليمية وميولهم المستغربة أو المستعربة، وهل يطمئنون إلى كون حيادهم يبعد عنهم الكابوس الإسرائيلي، والجلجلة الفلسطينية وأعباء العبث العربي المفتون بخسارته، والتعبير عن خسائره في تحصيل فوائدها من الكوارث اللبنانية؟

II

أسئلة تحتاج إلى إجابات حاسمة:

قوة لبنان خطر عليه، فلماذا تصرّ المقاومة في لبنان على الاحتفاظ بسلاحها. أليس من الحكمة أن نسمعها بصوت مرتفع: «دعونا نعش» بسلام؟ هل على اللبنانيين الانتظار لسنوات مديدة، تمتد عقوداً، ليرتاحوا من عبء المقاومة وآثارها المؤلمة؟ ويملك اللبنانيون حجة: ألا يكفي ما قدَّمه لبنان من تضحيات، تكفَّل بدفعها رجاله ونساؤه وأطفاله وعمرانه واقتصاده وعملته واستقراره ومؤسساته؟ ألا يكفي أننا اقتتلنا في حروب داخلية دفاعاً عن فلسطين، فلا ربحناها، ولم نربح بعد أنفسنا؟ أليس من الأفضل، وقد حرَّرت المقاومة اللبنانية القسم الأكبر من الجنوب اللبناني، أن تركن إلى الخط الأزرق، والحركة الدبلوماسية في الخطوط الدولية الخلفية، وخنادق الدول العظمى، لإيجاد حل لمسألة السيادة في مزارع شبعا المحتلة؟ ثم، أليست المقاومة «المستقلة» عن الجيش النظامي، انتهاكاً للسيادة اللبنانية، بحيث يصير لبنان بقرارين، وهل يتوقع، استتباعاً، عودة الابن الشاطر إلى أحضان الجيش اللبناني، ليتولَّى وحده مهمة الدفاع عن الوطن؟ ألا يجنب لبنان، بعد ذلك، مغامرات عسكرية غير محسوبة، قد تعرِّضه لمخاطر الاجتياحات والتدمير؟

ثم: ألا يُنظر إلى انقلاب موازين القوى العربية والدولية كإنذار للبنان، قادة وأحزاباً وطوائف، كي يتعقل، ويعقلن مقاومته المسلحة، فالعين لا تقاوم المخرز الدولي، خاصة، بعدما غرزه في العراق، ونَغَر بقراراته سورية، واستحوذ على طاعة بعض اللبنانيين في قبول وتبنِّي ما كان مرفوضاً من قبل؟ أليس من العقلنة أن يوفِّر لبنان عليه، غضب الولايات المتحدة الأميركية، في زمن جموح

قيادتها بتأثير قراصنة المحافظين الجدد، وثعالب المتصهينين فيها؟

ثم: ألا تشعر المقاومة، بأنها بامتلاكها السلاح والتفرد به وحدها، دون سواها، تخل بالتوازن اللبناني الدقيق، الذي يحتاج إلى لا غالب ولا مغلوب، اليوم، وغداً؟ أو، الذي يحتاج إلى مغلوبين، لا يقوى واحد منهم على الآخر، ولو بالعدد، أو بالسلطة؟ أو ليس لبنان بحاجة إلى تفهُّم وتفاهم وإلى ضعف متبادل بين الطوائف. فضعف في السوية عدل في الرعية؟

III

أسئلة أخرى أشد وطأة وأكثر خطورة:

هل يمكن أن يبقى سلاح المقاومة على دين فلسطين أيضاً، في المستقبل؟ فإن حكمته المعطيات الإقليمية والدولية، عند حدود الخط الأزرق، فليس ما يمنعه، في ظروف مؤاتية، من أن يمتطيها، فيكون، إلى جانب المقاومة الفلسطينية، وطنية أم إسلامية، في معركة طويلة ضد إسرائيل؟ أليس من أجل هذا تطالب إسرائيل، ومعها أصدقاؤها الحقيقيون، وأصدقاء لبنان ـ يا للمفارقة ـ المزيّفون، بنزع هذا السلاح، كي تطمئن إسرائيل إلى مستقبلها، وتتفرّغ لترتيب الباندوستانات الفلسطينية، وفق دولة التمييز العنصري إبّان مفاوضات المائة عام المقبلة؟

ثم: ما علاقة هذا السلاح مستقبلاً والمتمتع بحصانة الحكمة، إذا قرّرت الولايات المتحدة الأميركية، فتح المعركة مع جمهورية إيران الإسلامية؟ هل سيتولّى السلاح اللبناني الدفاع عن الحق النووي الإيراني؟ وما علاقة هذا السلاح بالجولان الساكتة على احتلالها منذ العام ١٩٧٣؟ ألا يقول اللبنانيون: فليقلع السوريون شوكهم بيديهم،

ولتنفذ إيران بجلدها، كي لا يدفع لبنان ثمن مغامرة أميركية في الخليج، وثمن تخلٍّ عربي ودولي، عن حق سورية في الجولان؟

أي: هل هذا السلاح اللبناني له شركاء في المنطقة: إيران وسورية وفلسطين، إضافة إلى حركات مقاومة جديدة طفت على سطح التحدي للوجود الأميركي، وما الدور الذي ستؤديه هذه المقاومة في لبنان، إذا تطور الزحف العنفي، على أنظمة اشترت بقاءها وسلامها من الدعم الدولي ومن الولايات المتحدة تحديداً؟

ثم أخيراً: ما حجّة هذا السلاح والقاهرة بَنَت سلاماً بارداً، والأردن سلاماً حاراً، ودول الخليج سلاماً من بعيد، ودول المغرب سلاماً بالتقسيط، والفلسطينيون يبحثون في الجدار الدولي عن ثقب صغير، ليربطوا به خيط آمالهم بالسلام، ولو عبر خريطة طريق، لم تجد بعد طريقها لغير دمائهم. أما نجت أنظمة عربية واشترت سلامها بصلحٍ مع إسرائيل؟

لِمَ هذا السلاح المخالف لمنطق العرب، ومنطق السلام والمنطق الدولي؟ أليس يشكّل خطراً على لبنان؟

IV

يشكّل مطلب نزع سلاح المقاومة في لبنان، وتلطيفاً، إيجاد مخرج بالحوار لحل هذه المعضلة، إجماعاً عربياً، ترجمه قرار دولي (الرقم ١٥٥٩). كان قد سبقه وأعقبه مطاردة محطة «المنار» الإعلامية، عبر منع بثّها في أوروبا وأميركا الشمالية، وبعض أميركا الجنوبية. أما أكثرية الدول العربية، التي صادقت الجزائر باسمها في مجلس الأمن على «نزع سلاح الميليشيات» (١٥٥٩)، فهي ترحّب بتجريد أو بتسليم «حزب الله» لسلاحه. وترى هذه الدول، أنَّ كل سلاح

خارج الشرعية المحلية، ولا ترضى عليه الشرعية الدولية، هو سلاح إرهابي. وتسعى الدول العربية إلى التبرّؤ من تهمة دعم هذه القوى «اللاّشرعية»، خوفاً من مطاردتها من وكلاء «الحق الدولي» بتهمة الإرهاب. التهمة التي لوَّحت بها الولايات المتحدة الأميركية، ضد الدول المارقة، والشقيقات العربيات لهذه الدول.

ولـمّا بلغت الطاعة العربية، بحكم تبنّي عقيدة العجز، مكانة القبول الدولي لها، بات الخروج من هذا المنطق مخالفة، بل خطيئة، تعاقب عليها الولايات المتحدة الأميركية.. باتت القوة معصية، واجب التوبة عنها وعن الاحتفاظ بها، وحرام دولياً استعمالها.

إذاً: قسم من اللبنانيين، يتمثّل بأقلية مسيحية، متحلّقة حول قيادات روحية وسياسية، قديمة ومستحدثة، وبين بين، تجمع على أنَّ هذا السلاح، عليه أن يرتاح. البعض رأى إلى عقيدة القتال ضد إسرائيل واحتلالها لجنوب لبنان خرافة. رأى إلى المقاومة أنّها دونكيشوتية مراهقة. اكتفى بترداد صلاة الغائب لإحضار القرار ٤٢٥.

فئة أخرى: التأمت على «سُنَّة» الكف عن القتال: كفى. خرجت إسرائيل ألحقت بها الهزيمة. «برافو» وكفى! بعد استشهاد الرئيس رفيق الحريري، واصطياد النظام السوري بعدد من التهم، وصلت إلى حد اتهام جهازه العصبي الأمني والسياسي، في لبنان وسورية بالجريمة، باتت بندقية المقاومة محلّ امتحان يومي. عليها أن تثبت حقيقتها اللبنانية، لكونها تبوّأت الدفاع عن اللبنانيين. موقفها القومي من سورية، غير مفهوم لديها. بل، يظهر أنّه طعنة في ظهر بعض السنَّة الذين كانوا حضن المقاومة وساعدها والذين حموا قدوم فلسطينييها إلى لبنان، منذ أول البنادق في العرقوب. فبيروت على أيديهم، تحوّلت إلى عاصمة مؤقّتة للمقاومة الفلسطينية.

أختصر: فئة من السنَّة تبدَّلت مواقفها، بعد اغتيال الحريري.

أكثرية أخرى، يقودها وليد جنبلاط. إن شاء احتضن المقاومة، واعتمدها أقنوماً من أقانيم السياسة اللبنانية، وإن شاء، حطها من مهمتها، وصرفها من الخدمة. شبعا: كعب أخيل. أو، في مرة أخرى، مطلب أصيل. وإن شاء، ذهب إلى أميركا مدَّعياً الخوف من الفرس. وإن شاء، فعل أكثر من ذلك تحريضاً وتهشيماً لسلاح المقاومة.

أختصر: المقاومة تسبح في بحر شيعي، تحتمي به من غوائل الطوائف. الإجماع الوطني الهش حولها، والمليء بالمداراة، أو بالنفاق، سقط.

إذاً، من ذا الذي، حتى اللحظة، من غير «أهل البيت» الطائفي والسياسي يتبرَّع بالدفاع عن سلاح المقاومة؟

V

الجدل البيزنطي اللبناني لم يسفر بعد عن حوار عقلاني. إنَّه حوار سياسي. كلام بصوت مرتفع. مواقف في متاريس. حوار المستحيلات. أو، حوار الكمائن الصامتة، والنفاق المتبادل.

مقاربة سلاح المقاومة مقاربة سياسية خلافية متوارثة. وهي، كما جرت العادة، مقاربات طائفية.

الأسئلة المطروحة آنفاً، تستدعي العودة إلى الفلسفة والفكر السياسي وعلم الحروب، وتتطلَّب حتماً فهماً لموقع القوة في التاريخ القديم والحديث، وموقع المقاومة كجزء من هذه القوة.

لذا، ستكون المحاولة تحت العناوين التالية:

أولاً: هل الحرب قانون تاريخي مقيم. هل هي استمرار أم استثناء. وإذا كانت كذلك، فمتى وكيف تتخلى الدول والجماعات والمقاومة عن عناصر قوتها، وهل حدث ذلك فعلاً، أم أنَّ عكس ذلك تكرّس.

ثانياً: هل يمكن إلغاء الحرب وإلغاء أسبابها؟ هل يمكن إلغاء العنف، عزف الإنسانية المزمن؟ هل يمكن إلغاء أسباب العنف: أي، إلغاء التعصُّب الديني، إلغاء الطبقات، إلغاء الأوطان، إلغاء الجغرافيا، إلغاء الحدود، إلغاء الفقر، إلغاء الطوائف والمذاهب، إلغاء نزعة السيطرة، إلغاء الاستقواء، إلغاء فكرة البحث عن عدو، إلغاء السلطة، إلغاء القمع، إلغاء الاحتكارات، إلغاء الفروق الدولية المذهلة، إلغاء الشمال والجنوب، إلغاء مصادر الطاقة، إلغاء التسلُّح... بمعنى آخر هل يمكن إلغاء الحروب؟

ثالثاً: ما موقع المقاومة في مسيرة الحروب؟ ما معنى حرب الأنصار؟ هل اعتمدت الدول، إلى جانب جيوشها، مفهوم المقاومة، وبعد هزيمة جيوشها، اختارت المقاومة بديلاً؟ هل كان غريباً استمرار المقاومة إلى جانب الجيوش؟

رابعاً: هل المقاومة إرهاب؟ ولماذا لم تستطع الهيئات الدولية بلوغ تعريف موحد للإرهاب! ولماذا تختلف وجهات النظر في ذلك، فما يراه طرف مقاومة يراه الطرف الآخر اعتداءً وإرهاباً وخروجاً على الشرعية القائمة! ولماذا اختلفت الولايات المتحدة الأميركية مع الاتحاد السوفياتي سابقاً على تعريف الإرهاب؟

خامساً: ما صورة العالم اليوم، وكيف كانت في خلال القرن العشرين؟ ولماذا دعي القرن العشرون، قرن الحروب، والقرن

الحالي، في بدايته، قرن الإرهاب والإرهاب المضاد؟ وما موقع المقاومة في هذا العالم، انطلاقاً من حضورها في قلب منطقة، تحبل يومياً بأسباب العنف، وتلد يومياً، إلى قارعة العنف، حروباً يتداولها أهلها، وستبقى مفتوحة على زمن قادم: العراق مجرد من دمه. فلسطين مذبوحة. دمشق مطاردة، ولبنان في قاعة انتظار.

سادساً: في عالم القوى غير المتوازنة، غير المتوازية، ما دور المقاومة؟ وإذا كانت الحروب تحمل مخاطرها معها، وتوزع كوارثها إبان وبعد معاركها، فهل المقاومة تحمل مخاطر أقل أم أنها توفّر الكثير من الدمار والآلام؟

أخيراً: إذا كانت المقاومة ظاهرة مألوفة، على مستوى الممارسة في التاريخ، ولها مبرراتها الموضوعية وتحمل معها شهادة إقامة ناجحة في التاريخ، فإنَّ مسألة الحفاظ عليها تصبح ضرورة سياسية. أما إذا ثبت فشلها كخيار من بين خيارات أخرى ممكنة، فإنَّ التخلي عنها، يضحي واجباً وطنياً.

لعلّنا، إن بدأنا بالعلم وَلجنا إلى إجابات مقنعة، أو أكثر قليلاً، أو، أقل قليلاً.

لذلك، نبدأ بالبوليمولوجيا.

[فلنقرأ حكايات إبريق الدم...]

حكايات إبريق الدم

هل أنت بحاجة إلى اكتشاف وجود الحرب؟

يقول برودون: «لا حاجة لأي قارئ أن تقول له ما الحرب. كلنا لدينا فكرة ما. البعض كان شاهداً، البعض كان مصاحباً، والبعض ارتكبها».

إنَّها قديمة جداً. إنها أقدم من السلام. بل إنَّها البداية. المثل الروماني بليغ: «si vis pacem, para bellum إذا كنت تريد السلام، فاستعدّ للحرب».

بعيداً عن أقوال ذات طابع سيكولوجي مضطرب، وبعيداً عن لذّة الإنسان الدائمة بالدماء، من الجماع الجنسي إلى اغتصاب الطبيعة، وبعيداً عن اعتبار الحرب طبيعة ثانية عند الإنسان، فإنَّ العودة إلى

٤٦٨٠ سنة من التاريخ ستظهر لنا مشهداً دموياً بفظاعات لا توصف. عرفت البشرية فقط ٢٧٧ عاماً من السلام.

حرب إيران ـ العراق هي السابعة والعشرون بعد المائة منذ العام ١٩٤٥.

يقول جوزف برودون: «لقد قاتلنا في الماضي، إذاً سنقاتل أيضاً في المستقبل». فالحرب ولدت مع الإنسان، والحرب أزلية وخالدة.

وللتأكيد على مسيرة الحروب المظفرة، بكل بشاعاتها ومجازرها وتدميرها وإباداتها، نبدأ بمسلسل الحروب منذ العام ٢٣٣٠ ق.م معارك الملك أوديمو، ثم الملك سمركت في سيناء. اجتياحات ملوك إيلام. الحثيون يتدفقون إلى كبادوقيا. ثم يقاتل ألهكسوس المصريين، المصريون يقاتلون الليبيين، والفلسطينيون ضد العبرانيين، والعبرانيون ضد الآراميين والآشوريون ضد السوريين وهلم جراً، وبين وبين.

هذه المنطقة خضعت لفصول الدم المتوارث. إنّها منطقة الاجتياحات الإمبراطورية الكبرى.

عام ٦٠ ق.م. الصينيون يبيدون المنغوليين. مملكة دمشق يدمرها تلغات فلصر. مملكة إسرائيل أبيدت على يدي سلمنصر الخامس وسرجون. بابل اختفت... ولم تكن تلك الحروب للمرة الأولى والأخيرة، بل أعيدت فيها مرة تلو مرة.

الحروب لغة أكثر تداولاً من الحروف. أبجدية الاجتماع البشري، أبجدية لها أنياب مفترسة، وأشداق لا تشبع.

وتستمر الحروب: الإسبرطيون، الميريون، المقدونيون الـ... يتنازلون عن كل متر من الأرض بالجثث والموت حتى الثمالة. يجتاحون المدن، يحرقون القرى يتلفون الحقول. كل صراع كان يولّد صراعات لا تتوقف. نسل من الحروب، بعدد رمل الشواطئ.

٦٠٠ سنة قبل الميلاد، أول حرب مقدسة، وعام ٤١٠ ق.م. معركة أرغيموز. ثم معركة آرابيل، ثم معارك روما وقرطاجة. وعام ١٤٩ق.م. طحنت قرطاجة وتحول المتوسط إلى بحر من الدماء.

دخلت روما مسرح العالم بحروبها على كل الجهات. قبله غزا الإسكندر العالم. قورش فعل ذلك. بومبيوس يصل إلى القدس قبل الميلاد. القيصر يغزو الشمال، يطارد الغوليين ويحوّل أليزيا إلى غبار.

عام ٢٣١ يجتاز الغوطيون الدانوب لأول مرة. فتحوا الطريق لغزوات البرابرة. استمرت الغزوات على وتيرتها ثلاثمائة عام فقط لا غير. اجتاحوا بلاد البورغوند، السويف، الأوستروغوت، الفاندال، احتلوا أوروبا ووصلوا إلى بلاد الشرق. أحرقوا، اغتالوا، أبادوا. كرنفال من الاغتصاب والدمار والدخان.

عام ٦٣٨ وبعد الاجتياحات والفتوحات العربية، حروب على كل الجبهات. بلاد فارس، مصر، الشام، وصولاً إلى المغرب والأندلس. شرقاً بلغوا الهند ونهر جيحون، مروراً بشعوب وقبائل.

عام ٧٣٦ يتحالفون مع جحافل التيبت ضد الصين. انتصروا على الصينيين. ثم تحالفوا مع الصينيين ضد أهل التيبت.

ثم جاء دور البلاد النورماندية: فيما كان السلاف يحاربون الألمان، والهنغار يحاربون الطليان ويجتاحون بلادهم، وفيما يجتاح القرامطة بغداد، وبينما البابا يوحنّا العاشر يخوض حروب الكنيسة على جبهات أوروبا ويقتل أثناءها، كانت الحروب الدينية تخرج من أبواب السماوات ولا تمت إليها بصلة.

بعد ألف سنة من الميلاد، لم تجد الإنسانية سلامها، كما كان يتوقع أبناء القرن العشرين الذين أملوا أن يكون القرن الواحد والعشرون قرن السلام. فبدأ بأحداث وجرائم ١١ أيلول في نيويورك وانتقل إلى حروب في أفغانستان والعراق... والآتي أعظم.

السنوات الأولى من العام ألف، دشنت بحروب دموية قام بها السلجوقيون والغزنويون. تبعتها حروب غيوم الفاتح الذي كان يقرع بجيوشه أبواب إنكلترا.

وحبلت أوروبا بالحروب الصليبية فصدرتها إلى الشرق. لكن الحروب الأخرى لم تهدأ: أهالي سومطرة يجتاحون مدغشقر. وسمعان حامل الحديد والنار يشعل بلاد اللانغودوك.

ثم استعادت الإمبراطوريات وحروبها مواقعها. بعد روما، جاءت إمبراطورية الكنيسة في روما. الإمبراطورية البيزنطية. إمبراطورية الخلفاء الأمويين والعباسيين. ثم عودة المغول إلى مسرح: شمال الصين، هنغاريا، وصولاً إلى برمانيا.

حروب ملوك أوروبا عاشت أكثر من ثلاثة قرون فيما كان هولاكو يدشن أبشع الفتوحات في العالم الوسيط.

حرب المائة عام. حرب غريسي، اجتياح كاليه، معركة بواتييه، حصار أورليان، معارك جان دارك.

ملوك، أمراء، خلفاء، سلاطين، قواد، بابوات، جنرالات، أباطرة، يملأون العالم الوسيط دماءً وناراً ودخاناً. الخراب في كل مكان.

الحرب تجتاح أرمينيا، دلهي، إنكلترا، هنغاريا، بولندة، سيام، روسيا، السويد، فنلندا. شارل الثامن يقاتل في إيطاليا، و... معركة مارينيان الشهيرة.

تستيقظ البرتغال على شهوة الاجتياح. تصل إلى آسور، غينيا، مدغشقر، سومطرة، ماليزيا، البنغال. العدوى تنتقل إلى الإسبان: يجتاحون الأنتيل، يوكاتان، البيرو، الشيلي وفلوريدا.

في القرن السادس عشر، نتعرف على حروب جديدة: حروب المذاهب والطوائف: مذبحة فاسّي، معركة سان دوني، فيما يقوم الأتراك بالقبض على قبرص. البحر المتوسط يستسلم للأتراك، وأوروبا تنزف دمها في مذبحة القديس برتلماوس.

لم يتأخر الشرق أبداً في الاحتفالات الحربية: اليابان تغزو كوريا. الهولنديون يطأون شواطئ اليابان. (لا مسافات شاسعة أمام الحروب. كل المسافات تقصر أمام ذراع القتل). البولنديون يحتلون الكرملين، ويظهر الماندوش في الصين وكرومويل يخضع جزيرة إيكوس وإيرلندا. يعود العثمانيون لحصار البندقية في إيطاليا وفيينا في النمسا.

١٧٨٩، الثورة الفرنسية تدعو أبناءها إلى محاربة النمساويين،

والبروسيين ضد إنكلترا. ثم تتدفق حروب نابليون: يخنق مصر، يمزق إيطاليا، يسحق النمسا، ويخفق في احتلال روسيا، ثم يحارب كل الحلفاء فيخسر في المرة الأولى، وفي المرة الثانية كذلك، ولا يندم.

يظهر محمد علي في مصر. حروب ابنه إبراهيم باشا تصل إلى تخوم الآستانة: يجتاح بلاد الشام. فتن وحروب ومجاعات ومجازر... أميركا تجتاح المكسيك. حرب القرم. إسبانيا تقاتل البيرو والشيلي. حرب الانفصال في أميركا. بروسيا والنمسا ضد الدانمارك ثم بروسيا ضد النمسا. فالس دموي في كل مكان. تتغير الحلبة وقد يتغير الراقصون، لكن الرقص الدموي مستمر في كل مكان. وقبل القرن العشرين تشتد وتيرة الحروب. تقريباً في كل مكان: بلغاريا، صربيا، روسيا، تركيا، الصين، اليابان. مجازر ضد الأرمن. اليابانيون يضربون بورت أرتور. حرب إيطالية تركية. ثم...

القرن العشرون، هو قرن الحروب.

هل متعب تعداد هذه الحروب الكوارث؟

أغفلنا الكثير منها. لم نتحدث عن أعداد القتلى والجرحى. عن الخسائر المادية والعضوية. ومع ذلك، فإنَّ العالم كان يتقدَّم بسرعة مذهلة. يحارب ويتقدم، كأنَّ الحرب هي عامل التقدم الصاعق. المجتمعات من دون حروب تستنقع. الحروب تدفعها إلى التطور والتقدم. الفكر نتاج الأزمات والحروب. الفن في بداياته حربي وصولاً إلى غرنيكا في إسبانيا. الشعر منذ هوميروس شعر أبطال وحروب. قصائد العرب العصماء موقعة بالدماء. *أنشودة رولان* تبث الحروب الأوروبية. الفلاسفة، المفكِّرون، الحقوقيون، تمتعوا

بالحرب، لأنها أنتجت فكراً وفلسفة وأنظمة ومآسي.

فإلى جانب الأحزان والبكاء، كانت البشرية تتقدم بقوة إلى مستقبل أكثر تقدماً وأشد فتكاً، فلنفتح القرن العشرين.

برغم الحروب المتناسلة كالبرامسيا، فإنَّ البشرية نجحت وقُدِّر لها أن تضع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدداً من المبادئ والاتفاقات التي عوَّل عليها المتفائلون كثيراً. ظنوا أنَّ الإنسانية قد بلغت من النضج العقلي، ما يجعلها تتخلى عن النزوع إلى الحرب عبر اعتماد الحوار لغة، والعقل مرجعاً، والمصالح المشتركة إطاراً للعمل الجماعي.

الحضارة الموعودة في القرن العشرين، تناثرت أركانها في لهيب الحرب العالمية الأولى. «إننا لا نستطيع أن نفهم القرن العشرين، إلاَّ إذا عرفناه، كقرن من الحروب. إنه قرن موشوم بالحرب. عاش وفكَّر في الحرب، حتى في الفترات التي سكتت فيها المدافع وتوقفت القنابل عن الانفجار أو الانشطار» (هوبساون. ١٤٩٧).

بعد المذبحة البشرية في الحرب الأولى والإبادة الأرمنية ومجازر الحرب العالمية الثانية وإبادة اليهود في المحارق النازية، عرفت إسبانيا نوعاً مختلفاً من الحروب. جيش ومقاومة، قصف غرنيكا وقتل ١٦٠٠ إسباني وجرح ٨٠٠.

قبل هذا التاريخ الأوروبي، الذي دهش فيه الأوروبيون مما ارتكبه فرانكو ضد مواطنيه، ما استدعى أهمية مقاومة ضد الدكتاتورية الفالانجية الفرنكوية، شعروا بأن المقاومة، باحتضانها رجالاً وأحزاباً من القارة القديمة وبعض المغامرين في القارة الجديدة، قد تكون

نموذجاً يحتذى. لم يلتفت الأوروبيون إلى المقاومات المسلحة التي قامت ضد إرهاب فرانكو في شمال أفريقيا. فقد مارس في البلاد المستعمرة أبشع مما مارسه في إسبانيا. ومع ذلك، فإنَّ تلك المقاومة ظلت محذوفة من التاريخ الأوروبي.

قبل هذا الزمن، عرفت المقاومة طريقها إلى القتال، في كل الحروب، فالجيوش النظامية التي كانت عماد الإمبراطوريات، كانت تقاوم، بجيوش ولايات ضعيفة، ومقاومات شرسة.

حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرة لمردة وعشائر وقبائل وإثنيات، وجماعات قاومت إلى جانب الجيوش.

وعرف القرن العشرون ظواهر عديدة جديدة:

أولاً: كان عدد القتلى في أكثريتهم الساحقة من الجنود. فالتقدم التقني، لم يسمح كثيراً، بالقتال عن بعد. كان الالتحام بين الجيشين ضرورياً لحسم عدد من الأمتار في ساح المعارك. ظلّت الجيوش المتحاربة في الحرب العالمية الأولى شهوراً تقاتل حول حقل لتتقدم عدداً ضئيلاً من الأمتار. مع التقدم التقني المذهل، ودخول الطائرات والصواريخ والأجهزة الحديثة ووسائل التحكم من بُعد بالأسلحة، تحوَّل المدنيون إلى طرائد مباحة. ففي ليل ٩ـ١٠ آذار ١٩٤٥ حصدت الطائرات الأميركية عندما قصفت طوكيو، أكثر من ٨٤ ألف قتيل، معظمهم من المدنيين، من الرجال والنساء والعجائز والأطفال.

ثانياً: استعمال القنابل الذرية، والانشطارية، والنابالم، وسواها من منتجات الترسانات الحديثة أصاب المدنيين العزل أساساً. ففيما كانت حروب القرن التاسع عشر، توفر السكان وتعفو عن المدن

والقرى النائية عن ميادين القتال، فإنَّ القصف الجوي، أدى إلى دخول المدنيين في لائحة الضحايا، ولأول مرة، أكثر من العسكريين.

ثالثاً: بعدما كانت تدان عمليات الإبادة والترحيل، فقد أقدم الاتحاد السوفياتي على ترحيل مليون ومائتي ألف ألماني إلى سيبيريا وكازاخستان، واعتبرهم «أعداء الشعب». كما أقدمت الولايات المتحدة على حصار اليابانيين المقيمين على أراضيها. أما الاجتياحات، وقتل المدنيين، فقد عرفت مدى لم تعرفه من قبل. فقد أقدم اليابانيون على قتل ٣٠٠ ألف صيني واغتصاب ٢٠ ألف امرأة في نانكين وحدها.

رابعاً: يصف العلماء، القرن العشرين بأنه قرن المجازر الجماعية والفظائع الباهظة. فالتقدم العلمي الواعد بالبحبوحة والراحة والطمأنينة للبشر، سقط أخلاقياً، عندما أصبح موظفاً في المصانع وفي مراكز أبحاث التسلح. ترافق التقدم العلمي مع اضطراد تصاعد العنف بكل أشكاله وأصاب المتحاربين والعزل معاً. محارق ومعازل ومجازر وإبادات وجرائم ضد البشرية، من دون أي سوابق تاريخية. (باستثناء الإبادة الأوروبية لسكان أميركا الأصليين). تطهير عرقي وقمع سياسي ومطاردات ومجتمعات معسكرة وديموقراطية جبانة. لعلَّ هذا ما دفع شارل ماير إلى إطلاق لقب «التوحش الأخلاقي» على القرن العشرين.

أسقط القرن العشرون الأخلاق بالضربة العسكرية القاضية عندما حوَّل عنف الجيوش، إلى عنف ضد السكان. لقد تبربرت أوروبا ضد نفسها. فكيف لا تمارس بربريتها في المستعمرات؟

خامساً: قرن الحروب في أوروبا عرف فظاعات أوروبية في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط. الظاهرة الغريبة، أن عدد السكان، وفق نظرية مالتوس، يتزايد وفق متوالية هندسية، إلاّ في بعض المناطق الأفريقية الخاضعة لسلب الاستعمار. فقد تناقص عدد السكان فيها، بسبب الجوع والمرض والعزل والقتل والترحيل والاغتصاب وحروب الإبادة واحتفالات الانتقام.

كادت أفريقيا أن تتحوَّل، لولا حركات التحرر الوطني، ودخول العالم منظومة جمعية الأمم، إلى قارة أخرى، يباد فيها سكانها، ليصير الأبيض سيد العالم.

عرف هذا القرن طريقة غريبة في رسم الخرائط لإنشاء مناطق نفوذ، تحوَّلت فيما بعد إلى أوطان ممسوخة، تحمل بذرة العنف فيها... وتنفجر عند كل منعطف أو تغيير.

سادساً: قرن الحروب الأوروبية هذا، أصاب العرب بما يلي:

أ ـ اتفاق سايكس ـ بيكو، الذي أورث العرب كيانات لا تستقر إلاّ على حال العداء فيما بينها، ومصيرها وسيادتها مرتبطان بقوى من خارج، تضمن بقاءها. وقد أورثت هذه الحروب الأوروبية البلاد العربية، عدداً من الحدود المتداخلة، التي شكلت بداية لحروب كثيرة: المغرب، الجزائر، ليبيا، التشاد، مصر، السودان، السودان وجنوبه، الصومال ـ الحبشة، سورية ـ لبنان، الكويت ـ العراق، العراق ـ إيران، سورية ـ تركيا.

ب ـ وعد بلفور، مع تداعيات وصلت إلى محاولة إلغاء شعب فلسطين، وتبنّي الغرب لهذا المشروع، ودعمه بالسلاح، مع إبقاء

الوصاية على أنظمة عربية أورثها كيانات على قياس الانتداب ومصالح المنتدبين.

وقد أورث وعد بلفور، وحركة الاستيطان الصهيوني، ونشوء كيان إسرائيل، العالم العربي، عدداً من الحروب وصلت إلى الذروة في المواجهة الدولية، مراراً، في العام ١٩٥٦، إبان العدوان الثلاثي على مصر، وفي العام ١٩٧٣ في حرب تشرين.

ج ـ أسست هذه الجرائم لحروب كثيرة. اعتبرت المنطقة العربية، أنها حاضنة لخميرة الحروب: حرب النكبة (١٩٤٨)، العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي على مصر (١٩١٦)، حرب النكسة (حزيران ١٩٦٧)، حرب الفدائيين (من ١٩٦٥ ـ ؟؟؟)، الحروب اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠) اجتياح لبنان الأول (١٩٧٨)، اجتياح لبنان الثاني (١٩٨٢)، حرب تشرين (١٩٧٣) حرب الخليج الأولى ثم حرب الخليج الثانية، بعد اجتياح الكويت، ثم حرب إسقاط العراق (٢٠٠٣). يضاف إلى هذه الحروب، حروب إقليمية أخرى.

د ـ عرفت هذه المنطقة نضالاً شعبياً ومقاومة باسلة، منذ تنفيذ وعد سايكس ـ بيكو، وبعد وإبان محاولات تنفيذ وعد بلفور (ابتداءً من عشرينيات القرن الفائت) وصولاً إلى مقاومة فلسطينية مسلحة، بلغت تخوم إسرائيل الصغرى، ومقاومة لبنانية، وُلدت بعد نكسة حزيران، واستمرت، بأسماء وعناوين وعقائد مختلفة، إلى أن توجت بانتصار عام ٢٠٠٠، على إسرائيل، ثم بانتصار تموز ـ آب العام ٢٠٠٦، وصمودها في وجه أعتى عدوان عسكري سياسي عالمي وإسرائيلي وأميركي وبعض عربي، وبعض لبناني.

وكملاحظة في خاتمة هذا القول:

إذا كان العالم يتنفس حروباً، وإذا كانت المنطقة العربية قد حبلت وولدت حروباً كثيرة، وإذا كانت لا تزال حبلى بأسباب الحروب، وإذا كانت الحروب تقرع أبوابها، والضجيج السياسي يقعقع على أبواب العواصم، فكيف يمكن التخلي عن المقاومة؟

بلى. يمكن التخلي عن المقاومة، إذا اقتنعت الجماهير والشعوب العربية بالاستسلام.

فإما المقاومة أو الاستسلام.

بين هذين الطرفين، المعركة الكبرى حاسمة.

سفر الحروب

يرصد مؤسّس علم البوليمولوجيا (علم الحرب) غاستون بوتول ثمانية آلاف معاهدة سلام، أورثت، بعد توقيعها، أكثر من مائة مليون قتيل.

هذا يعني، أنَّ الحرب أقوى من الصكوك والتوقيع والمواثيق والمعاهدات. كأنَّ الحرب خالدة، أو هي تحيا ما دام الإنسان حياً يرزق، ولن تموت إلاً بموت الإنسان وفنائه. إذاً...

الحرب، هذه اللعنة الخالدة، هذه الخطيئة المستعادة، ارتكبتها البشرية، بعد خطيئة الحب اللذيذة. إنها حضرت، بعد الولادة الأولى، مع قايين وهابيل.

قايين يقتل أخاه هابيل. فِعْل القتل جاء بعد فِعْل الحب الرائع الذي ارتكبته حوّاء. أقنعت آدم بحلال المعرفة. معرفة اللذة الممنوعة. وإذا

صحّ ما جاء به الدكتور كمال صليبي في قراءاته الفيلولوجية، فإنَّ هذا القتل ترميز أو أسطرة لصراع بين جماعتين: الجماعة الرعوية المستقرة، وجماعة الصيد المتنقلة. صراع بشري بين مختلفين في الإنتاج وظروفه ومقدار قيمته، وأمكنة العمل والجهد.

والغريب، كما هو وارد في النص التوراتي، أنَّ العدالة الإلهية عاقبت قايين وحمته في الوقت نفسه. حمت القاتل، ومنعت العنف ضده. أمّنت له قدرة الاستمرار حتى الجيل السابع.

العنف، كما يراه بعض المؤرخين، من سبط إلهي. وأفضل قادة الحروب، آلهتها. السلام جزء من قداسة الطقوس الدينية: مار جرجس، (الخضر) الملاك ميخائيل، النبي إيليا، إلى آخره. تتخلّى عن كل شيء وفق كونفوشيوس، باستثناء ثلاث: سلاحك وغذاؤك وثقتك بحُكّامك. فالقوة أولاً. العنف دائماً. والأرض، مساحة لمعركة مستمرة، ترتوي بالمطر والدماء على السواء. «إنّها من سبط الآلهة». تحتاج إلى كفارة عن ذنوب البشر.

هل هذا من عالم الأسطورة، أو من صنع التخيل الأسود، أم أنَّ هذا الترميز، محصلة إبداعية، لوقائع متوحشة؟

يصدّق علم الحرب الحديث جداً، ما جاءت به الأساطير والروايات الدينية السحيقة، وما قدَّمه الفكر الفلسفي السحيق: «الحرب، هي المشترك بين الناس، إنّها أم الأشياء جميعاً (هيرقليطس). و«الحرب هي أم الأمور جميعاً». (أرسطو).

يقول المؤرّخ والكاتب جوزف دميتر، في مؤلّفه «سهرات سان بترسبورغ» إنَّ الحرب طبيعية، لأنّها إلهية بذاتها، ولأنّها كذلك،

فهي قانون منحوت في قلب صيرورة العالم. ولذلك، فهي ضرورية، ولو لم تكن ضرورية، لما كانت منتظمة في حضورها.

ويرى الخطيب الشهير بوسويه في الحرب يداً إلهية، وهي يد الله المنتقم. ومشاهد القتل المريعة، هي هبة إنسانية للآلهة. بل هي مشاهد ذات طابع ألوهي. إنها مشاهد الجنة. وعندما يصف القائد الفرنجي (الصليبي) ريموندو أجيل نتائج معركة احتلاله للقدس، يؤكِّد على سماوية المجزرة: «رأينا في الشوارع وفي الساحات قطعاً متناثرة من الرؤوس والأذرع والأرجل. الفرسان المحاربون الراجلون ساروا وسط الجثث المتناثرة من كل جانب. كنا نتوغَّل في الدماء سيراً على الأقدام، ونغوص فيها حتى ركب الجنود والفرسان. إنَّه مشهد سماوي».

نادراً ما نجد في التاريخ القديم أو الوسيط أو الحديث، حرباً بدون آلهة أو أنبياء أو رسل أو قدِّيسين أو أولياء أو ملائكة أو صلوات أو... وقد أدخل الله في الصراعات المعاصرة، وزُجَّ في معارك الفسطاطين ومعسكري الخير والشر، ولا يزال كذلك.

وعليه، فإنَّ الآلهة جميعاً، تنتمي إلى فرق الجيوش المحاربة أو المتحاربة، إنَّهم هنا وهناك في الوقت نفسه. إنَّهم مع وضد في المعركة ذاتها، مع المسلمين ضد المسيحيين، مع المسلمين ضد الهندوس، مع الهندوس ضد السنَّة، مع الشيعة ضد الخوارج، مع السنَّة ضد الشيعة، مع الشيعة ضد السنَّة، مع البروتستانت ضد الكاثوليك، مع المسلمين ضد الأرثوذكس، أي مع الجميع ضد الجميع.

وتتأتى القداسة من ألوهية الحرب وتساميها وتعاليها وتفوّقها على كل الأفعال الإنسانية. كل ما في الدنيا من شؤون، هو دون الحرب قيمة وأهمية. لذا، قدست الحرب وقدست الأسلحة وحصل تعظيم وتفخيم للمجازر. «فالحرب مقدَّسة» لأنها مقررة إلهياً، ومرادة إلهياً (دوميتر)، وقداسة الحرب تستدعي تطويب وسائلها كافة: «مباركة المدافع»، ففي الفجوات التي تفتحها، تتفتح أزهار الإنجيل (E.Paris **الفاتيكان ضد أوروبا** ـ ١٩٥٩) والأفظع من كل ذلك أن الكاهن العسكري المكلف بخدمة الله، صلاة وقداساً، مع المارينز في الولايات المتحدة الأميركية، طالب الله، ورجا السماء في السادس من آب عام ١٩٤٥، أن تبارك وتسدِّد خطى قادة الـ Emola - Gay لإتمام عملهم الرائع فوق مدينة هيروشيما. وأحرقت هيروشيما. إنها أفظع من محرقة سدوم وعمورة. (الله والقنبلة، **Le Monde** ١٩٧٨).

لماذا هذه الحروب المقدَّسة؟

«لأنَّ الله، يعاقبنا بالحروب التي يقودها بنفسه، ليغسلنا من خطايانا». (رينيه بازان).

بعض ما ورد في العهد القديم يشكِّل نموذجاً للآلهة التي تحرِّض وتأمر وتخوض حروباً على الآشوريين والمصريين والحبشيين والفلسطينيين والرومان والـ...

ينشد الملك داود:

«ألاحق أعدائي، حتى أبلغهم

ولا أعود إلاَّ بعد إبادتهم

أهزمهم، فيعجزون عن الوقوف
ويقعون أمام قدمي».

ولئن كان بعض آباء الكنيسة، كأوريجين، وباسيليوس، يرفضان الحرب، ويعتبرانها من عمل الشيطان، فإنَّ لاهوتيَّ الكنيسة الأول القدِّيس أوغسطينوس، رأى في الحرب عدالة إلهية: «إنَّ مهنة المقاتل، مهنة جميلة ونبيلة ومريحة لله». ولذلك «فليس الإنسان، بل الله هو الذي يشنق ويقطع الرؤوس ويكسر العظام ويصنع الحرب» (لوثر).

فالآلهة في الحروب كالفرعون، والإمبراطور، والسلطان، والشاه، والبابا والخليفة والوالي والقائد والرئيس والزعيم والفوهرر والـ... وليس غريباً، إبان الحروب، أن نرى رجال دين معتمدين رسمياً في دولة ما، يفتون باسم الدين بصلاحية وعدالة حروب دولهم، ضد فتاوى رجال دين، من ملّتهم وعقيدتهم، يفتون بظلم وعدوانية، الحروب ذاتها، إذا كانت تُشن على دولهم.

مفتي الآستانة ضد مفتي الديار الإسلامية في الحجاز، إبان الحرب العالمية الأولى. كرادلة كاثوليك، يصلُّون ويحرِّضون ألمانيا النازية، على كرادلة فرنسيين، يصلُّون ويحرِّضون ضد النازية. كهنة إيرلندا الشمالية ضد قساوسة البروتستانت. هنا وهناك، المسيح يقاتل المسيح. الله ضد نفسه.

هل هذا عبث؟ الحرب آلة لتوظيف الآلهة والمال والرجال والفن والعلم والأدب والثقافة والقانون، في حريقها الدائم لبلوغ السلام المستحيل.

قد يعارض البعض، ويرى أنَّ العالم تمدَّن كثيراً، وخرج من حتمية القتل وثقافة الحرب وممارسة ارتكاب المجازر. قد يرى البعض أيضاً، أنَّ هذا الماضي، ليس نسخة صالحة للتداول، في عصر الأنوار والعقل والعلم والتقدم والمؤسسات الدولية والإنسانية، والتي رسا عليها التزام السلام الدولي. قد يرى البعض، أنَّ الهمجية البشرية والبربرية الإنسانية، والتوحُّش السالف، قد أخلت المسرح للدبلوماسية. يكتب رالف بيترز قبل أحداث ١١ أيلول ما يلي: «دخلنا في عصر أميركي جديد، فيه نصبح أكثر غنى، وأكثر قوة أيضاً، وستكون ثقافتنا أشد فتكاً كذلك. سنثير أحقاداً لا سابق لها.(...) سنحوز على انتصارات عسكرية في كل مرَّة نذهب لخوض معركة نربحها. لا سلام أبداً. في ما تبقَّى من حياتنا، سيكون في كل لحظة عدد لا يحصى من الصراعات، التي ستتخذ (أوضاعاً وأشكالاً وأنماطاً) مختلفة، من طرف هذه الكرة إلى أطرافها كلها. الصراعات الدامية ستحتل عناوين الصحف، لكن الصراعات الثقافية والاقتصادية، ستكون أكثر تواتراً، وفي المحصلة أكثر حسماً. دور القوات المسلحة الأميركية سيحدد بإقامة عالم آمل لاقتصادنا ومنفتح لديناميتنا الثقافية. ولكي نحصل على ذلك، علينا أن نقتل كثيراً». (**الصراعات الدائمة** ١٩٩٧).

وكم يشبه هذا التحليل، صلوات أحد الجنود الأميركيين في أفغانستان: «إننا نصدِّر الموت والعنف إلى أربع جهات الأرض كي ندافع عن وطننا العظيم». (عن بوب وودورد ٢٠٠٣). وتلتقي هذه الصلاة مع ما اقترحه مفكر أميركي معاصر، وهو روبرت كاغان عندما طالب الكونغرس بالتوقيع على حرب ضد بلدٍ ما، من دون تحديد اسم هذا البلد. المهم أن يوقِّع على الحرب. فالحرب هي الخلاص.

«إذا كنتم تريدون بناء السلام، فيجب أن تبنوه على جثثهم». ولا تناقض أبداً في قول رالف بيترز، لأنَّ الولايات المتحدة، صاحبة الرقم القياسي في شن الحروب على مدار قرن من الزمن، تحت لافتة: إقامة السلام. ولعلَّ آخرها، التهديد النووي، الذي يحرض عليه المحافظون الجدد، فمن يحاول الحصول على أسلحة نووية عليه أن يوقِّع على قرار إعدامه بيده. (شارل كروتامر ٢٠٠٢). ومن يرفض الخضوع لمنطق الممكن، ومن لا يتقيَّد بالخطوط الحمر التي ترسمها واشنطن «ستشن عليه حرب، بحلفاء أو من دون حلفاء، بموافقة مجلس الأمن الدولي، أو من دونها». (أندريه باسفيتش ٢٠٠٣).

أما استجداء الآلهة، وتوظيفها في المعارك، فيكاد يكون، بين إرهاب بوش وإرهاب بن لادن، حرباً بين إلهين، يخفيان وظيفة بعيدة عمَّا له علاقة بالدين وبالسماء.

وعن مديح المجازر، فالبلاغة المعاصرة تكاد تتفوق على ما جاء في إلياذة هوميروس، أو في قصيدة فتح عمورية للمتنبي «وموج المنايا حولها متلاطم». والجثث على الجدران كالتمائم. لا نبالغ إذا استمعنا إلى مدائح إسحق رابين لأسلحة إسرائيل، وتعظيمه لتكسير عظام أطفال فلسطين، ولا نبالغ عندما يصف القادة العسكريون الأميركيون سقوط القتلى في يوغوسلافيا، وعندما يمتدحون نظافة معسكرهم من القتلى.

لم يتغيَّر العالم كثيراً في استجداء الحروب، ظناً منه، أنها حلول لمشاكله. الذي تغير، أنَّ الحروب باتت أكثر شراسة وبربرية، وأكثر تواتراً، وأشد فظاعة. بحيث إن القرن العشرين كان تكثيفاً لقرون من الحروب السالفة.

الحرب شر لا بدَّ منه

مع الحرب أو ضدها أو بين بين أو شر لا بدَّ منه!... ولن يحسم الأمر أبداً.

مَنْ انتظم في تبرير الحرب، سار على خطاها حتى الثمالة، ومَنْ قوَّض كل أسبابها وأهدافها، ربح نفسه وقد يخسر المعركة بثبات. مَنْ كان مع الحرب يخسر أو يربح، أما مَنْ خرج منها فسيخسر لأنَّه سيدفع ثمنها باهظاً، سيصبح ملحقاً بالمنتصر.

لعلَّني لا أخطئ الظنّ، إنْ حسبت أنَّ الحرب معقَّدة إلى درجة دموية، وملتبسة إلى حد القتل، ومتداخلة إلى حد الإفناء، ومأساوية إلى غاية في الألم والعبث، ومقدسة إلى درجة توظيف الآلهة والأنبياء في معاركها وفي قيادتها.

إن للحرب حيوية مذهلة، وقدرة على التناسل باضطراد. على أنَّ رسم بعض الخطوط الفاصلة، قد يوفِّر علينا مشقَّة الاختلاط.

إنسانياً: الحرب في مصدرها، همجية بحت، لا تمت إلى الـخُلُق الإنساني بصلة. وبرغم ذلك، فهي صناعة إنسانية بامتياز. وهي ضد الإنسانية. حرَّمت كل الديانات القتل. ومع ذلك، فإن البشرية قدَّست حروب القتل الجماعي.

أخلاقياً: الحرب، أي حرب، مهما كانت مبرِّراتها وأسبابها ورجاحتها ومبادئها، لا تستحوذ على إجماع أخلاقي، فهي الشذوذ على المبدأ الأخلاقي المتعالي. القيم ضد القتل. لكن للحروب قيمها وأخلاقها وسموُّها.

حضارياً: تعد الحرب أحد أبرز وجوه الحضارات. لقد لازمت الحروب كل حضارة، حتى لنكاد نفتقد حضارة لم تكن في أساسها المادي والتاريخي، مبنية على القوة، والحروب. ولا يشك مطَّلع ثاقب، بأنَّ الولايات المتحدة الأميركية راهناً، هي الأكثر تفوُّقاً في الحضارة (تقنية واقتصاداً وثقافة وقوة) وهي الأكثر ترويجاً للحرب وممارسة لها، من خلال ما هي عليه من رتبة حضارية.

ثقافياً: تلتبس الأمور راهناً، فقد عرفت الثقافة عدداً لا يُحصى من التعبيرات الأدبية والفنية والثقافية «الخالدة» المتصلة بالحرب، أو المتشبعة بها إلى حد التمجيد. وفي الشعر العربي، حروب وسيوف. وأفضل الشعر الإغريقي حروب هوميروس في إلياذته. إطلالة النهضة الأوروبية تكلَّلت بأنشودة رونسار... فالثقافة، فنّاً ورقصاً وشعراً وقصةً وموسيقى ومسرحاً، نهلت من الحرب حتى أسكرت

عصوراً بعدها. وإرهاصات اللاَّحرب في الثقافة المعاصرة، خافتة صامتة، كما كانت، مذ قتل قايين هابيل، حيث عوقب هابيل «بالعين» (قصيدة هوغو) وكوفئ بنسلٍ لا ينضب.

اقتصادياً: الحرب ليست تجارة خاسرة أبداً. فهي أداة الفتح ومجلبة المال ومكدسة الثروة، بمقدار ما هي أداة تحفيز على التقدم والبحث عن مصادر الثروة والتحكم بها. هكذا كانت... وهي أكثر من ذلك في عالمنا الراهن. ألا يعتدّ علماء الاقتصاد، بحجم الشركات العملاقة، المحتلّة للمراتب الأولى في إنعاش الأسواق المالية، والتي تصنع السلاح، وتحثُّ على اقتنائه وتعميمه واستعماله؟ ألا تحتل اقتصادات الحرب مرتبة لائقة في عالم الصفقات العملاقة، حيث الأرقام لا تنخفض أبداً عن المليارات؟ وجه الاقتصاد الأول ـ لدى الدول المتقدمة، يرتكز على آلة الحرب وما حولها وعلى جنباتها. فالحرب في هذا الميدان نشاط اقتصادي بارز. وفي الاقتصاد الحديث تمّت التوأمة بين الرغيف والبندقية. ويأكل أكثر مَن يده أقوى.

علمياً: يعزى التقدم العلمي الثري، بل، والفاحش الثراء، إلى سباق التسلُّح المحموم. من أزمنة قديمة، أسست الحروب منصّات للتقدم العلمي. فمن لحظة احتياج الجماعات إلى وازع (وفق ابن خلدون) والبشرية تتقدَّم بشكل مضطرد، بمقدار تقدُّم العلم، وبمقدار ما تحث ضرورات الحرب عليه. ألم يولد الخلوي في مختبرات صناعات الحرب؟ أليس الإنترنت نتاج عبقرية الاتصال، في خضم البحث عن المعلومات في مختبرات التجسس؟ ألم يصبح الإعلام سلاح تدمير معرفي شامل وهو يتقدَّم على نفقة الترسانة؟ وفي تاريخ العرب والفرنجة ما يوثِّق علاقة العلم بالحرب. وبتنا اليوم، نتقدَّم في

الفيزياء (ذرّة) وفي الكيمياء ومشتقاتها (أسلحة دمار شامل) وفي البيولوجيا والباكتريولوجيا (أسلحة وبائية شاملة) وفي علوم الفضاء والضوء والانعكاس وهلمّ جراً وبسرعة مذهلة، لخدمة آلة الحرب؟

إنَّ بلوغ الفضاء، وتصيُّد الكرة الأرضية بآلات التصوير الدقيقة، حصل برغبة التفوُّق في مضمار القوة العسكرية، أكثر مما كان اكتشافاً دؤوباً، منطلقاً من شغف البحث عن حقيقة الأشياء والعالم. لم يعد العالم مختبراً نيوتونياً أو وَلَعاً دؤوباً كما كان لدى غاليليو غاليلي، بل بات يُحرَّضُ عليه، من قِبَل الشغوفين باقتناء القوة الأقوى ـ المتجاوزة لنفسها، بقوة مندفعة إلى أقصى مداها، بواسطة العلم.

ويقتات العالم من فتات الاكتشافات العلمية في ميادين الحرب والسلام، ببعض المخلَّفات، في ميادين الطب والاتصالات وتحسين النسل وإطالة عمر من يعمّر، إذا لم تصبه الحرب، أو إذا لم يعترِه فقر وإدمان جوع.

تاريخياً: يبدأ البيان الشيوعي الشهير بعبارة الصراع. فلا يعدو أن يكون تاريخ البشرية، تاريخ صراع طبقات. ولنحفظ كلمة صراع ونترجمها في الحقب المتلاحقة. أليس التاريخ ملتصقاً بالمعارك والبطولات والقيادات والحروب؟ بالطبع. إنَّ التاريخ لم يسجّل الحروب فقط، ولكن الحرب، كانت قامات تنتصب في الحقب، فيقسّم التاريخ بالنسبة إليها، حيث يقال، ما قبل إسبرطة، ما بعد كعب أخيل، أو، ما قبل الحرب العالمية الأولى، أو ما بين الحربين، أو ما بعد الحرب الباردة. إذاً، تحتل الحرب كإيقاع حدثي صاعق وعنيف مركزاً حاسماً في صدارة التاريخ... تاريخ الشعوب

والحضارات والسياسات والاقتصادات والفتوحات و... ولا بد من استبسال معرفي وخوض غير مسبوق في التاريخ، لتجريده من متن الحرب، وقد يبوء ذلك بالفشل، لشدة التصاق الحروب بالسياق التاريخي. فهي، من هذه الجهة، إرث إنساني مسموم، ولكنَّه في كل الأحوال إرث يحتشد به التاريخ، وينتقل من جيل إلى جيل، ومن حضارة إلى حضارة، ومن صياغة لعالم، بمنظوماته المتعددة، القيمية والمادية إلى عالم يزداد حروباً.

فالحرب ليست حدثاً نادراً أو استثنائياً أو غير عادي في تاريخ البشرية. إنَّها السطوة الكاملة للصيرورة، وهي التجلّي المصفّى للحيوية الإنسانية القاتلة والمدمرة. وإذا حدث وحذفنا الحروب من التاريخ، ولو على طريقة الافتراض، فلا نظن أنَّ التاريخ يثبت على قدميه، فقد يسقط من رتبته، ويصير العالم السالف، مشوَّهاً من دونها. كأنَّ الحرب، هي الباب إلى رحابة التاريخ... هي العتبة إلى رؤية السفك البشري.

وفي تبسيط ضروري، وأحياناً مدرسي، ومراراً شعبي، يجري الانتساب والانتماء إلى التاريخ، من حيث هو مرجع قوة، لا مصدر ضعف. فنحن تاريخيون ونرتمي في الانتماء إلى تاريخنا، في صياغة لنحن حديثة، من خلال ماضٍ مزدهر وقوي... ومحارب فذ، من جلقامش إلى طارق بن زياد وصلاح الدين ويوسف العظمة... ولائحة من قيادات «يعلم الجميع بأنَّهم خير من تسعى به قدم». وفي تناسب مع هذا الموقف من التاريخ، وحقبه الساطعة في قوتها وفي «وامعتصماه»، نتنكر لتاريخنا الغث والضعيف والمهزوم والمنشطر والمأزوم. أي أنَّنا، بالوعي الكامل، نصفّي التاريخ ونصنفه: تاريخ يليق بنا، هو تاريخ ممتلئ بالقوة، وتاريخ غير لائق

أبداً، ننكره ونتبرّأ منه (مع أنّه تاريخنا) لأنّه خسر جدارته في البقاء، في معركة فاصلة. وثمة حاجة إلى تبرئة حروبنا المنتصرة من وقائعها البربرية. فهي، كي تكون مرجعاً مريحاً، يجري تطهيرها من فجور القتل والإبادة، وتُضفى عليها أحياناً، سحنة إنسانية، تليق بأن تكون ترتيلة في قدّاس سماوي، أو، ما يشبه الذبيحة الإنسانية المباركة... أي، أنَّ الشعوب، نادراً ما تؤنّب تاريخها. فنابليون، لعنة في روسيا، وفرنسا شيطان في نظر بوشكين، (رغم هواه الشعري الفرنسي)، فيما هو عبقرية فرنسية من طراز فاخر جداً.

دينياً: بداهة متأصّلة؛ كل الديانات أتقنت حروبها. ولم يشذ دين (كمؤسسة مستمرة، رسمية أو اعتبارية) عن ممارسة فنون الحرب، كأبرع وسيلة في التبشير والكسب والانتشار والسلطة. ولئن كانت ديانات كثيرة، قديمة أو حديثة العهد، قد أخفت في نصوصها المقدّسة مفردات الدعوة إلى القتال، فإنَّ المسيرة الظافرة للديانات لم تجتنب القوة، بل بالغت أحياناً في بيع السماء، لقاء كسب في حرب أو قتال، من صكوك الغفران إلى عديد الحروب الدينية. ويمكن التأكد من نصوص كثيرة، كيف كان يُصادر الله، بأسمائه الكثيرة، وينصَّب قائداً حربيّاً أو مباركاً للحروب. وكما في السياسة والاقتصاد والعلم، حصلت مبالغات كثيرة في زج الدين، بأصوله وفروعه، في تفاصيل الحروب، بل في محاولات التأسيس عليها وبلوغ الأهداف من أجلها.

ولمنع أي احتكاك بين ما يُساق في القراءة وبين النصوص الدينية العديدة، نؤكّد أنَّ التجربة الدينية في التاريخ، كانت قراءات متعددة لنص ديني واحد. فالنص، في أحيان، متعالٍ عن تاريخيته، إلاّ أنَّ أتباع النّص الديني، يمتّون إلى المجتمع والتاريخ والمصالح.

وعليه، فإنَّ تبرئة النصوص ممكنة، ولكن تبرئة السلطات الدينية المتعاقبة، متعذِّرة جداً. وللتذكير: حروب النصارى في المشرق، حروب المسلمين في المشارق والمغارب، حروب الهندوس في الأقصى، حروب الفرنجة، فتحاً لأميركا، باسم الرب. وحروب المائة عام بين الكثلكة وأعدائها.

لم يبرأ دين من حرب. وقد أسبغ عليها من الألقاب ما كان يُعطى للأنبياء والبررة: فكل الحروب الدينية مقدَّسة، تضفي عليها السماء بركتها وهالتها. علماً بأنَّ الحروب الدينية، في معظم حقبها، تلبَّست الدين، لأهداف دنيوية. فالحرب لتعقيداتها ومنعرجاتها وفوضاها، تحتمل من الأسباب ما يجعلها في موضع التباس تاريخي. وهي، لذلك، تلبس الثياب المناسبة، دينياً وعقائدياً وحقوقياً، اللباس اللائق بها والمبرر لدخولها احتفالات القتل. الحروب الدينية الخالصة، نادرة أو معدومة. الحروب المختلطة، تداوم على الحضور.

ولا تخلو حرب من فظاعات. الحرب لا تقتل الأحياء فقط، بل تمثل بمن يبقى على قيد الحياة. تمثِّل بالقاتل وبالقتيل معاً. ويحيا القاتل وعليه وشم يشوِّه خلقيته، فيضعه في منزلة الندم والكابوس، أو يرفعه إلى ممارسة العنف والقهر. فلا أحد ينجو من الحرب، بمن فيهم أولئك الذين لا يمارسونها، أو حتى أولئك الذين يقفون ضدها، بكل ما أوتوا من صلابة الموقف والمعتقد والإيمان.

سيكولوجياً: الحرب توقظ الموت، وتدعوه إلى فراشنا، وتجعلنا ننظر إليه على أنَّه، إما كارثة لنا إنْ أقام عندنا، أو نعمة لنا إنْ استلقى عند أعدائنا.

لكن، لا مفر من ذلك. فالإنسان كائن متوحش، عندما تحين له فرصة الدخول في الحرب، مقاتلاً أو محارباً. هو سيزيف آخر. لذلك يغلب على القادة العسكريين التغزُّل بالآلة العسكرية الحديثة، ومدح العمليات القتالية، وإضفاء الشرعية على الجريمة، وتبرير المجازر بضرورات إنسانية، ونادراً ما يتحدث القادة العسكريون، القابعون في مكاتبهم أو في الخنادق الخلفية عن الثمن البشري، عن الموت الإنساني، عن الأطفال والنساء والشيوخ والمشافي. هم مشغوفون بعمل «إنساني» آخر: علاج الإنسانية بتخليتها من الأحياء «الأشرار»، بإنقاذ البشرية من موتها، عبر منح الموت للآخرين.

يشرح عدد من معدّي برامج التدريب والتسليح، كيفية نقل الطالب الجامعي من مواطن مرهف إلى مقاتل شرس. يعلّمونه كيف يصوِّب على أهداف مموَّهة، كيف يغرز سكينه في القلب، كيف يذبح من الحنجرة، كيف يطعن في الرقبة... كيف يتحوَّل إلى جزّار، أو إلى آلة قتل. أمّا الذين يدرَّبون على الأسلحة التي تطلق قذائفها عن بعد، والتي تصيب بذكاء أهدافها، ويلقى ضحاياها مصيرهم الأسود بين الأنقاض، فإنّهم يشربون الأنخاب بعد النجاح، ويشكرون الله على نعمة التصويب الدقيق والقتل المبيد. في الحرب، يصير الإنسان شبيهاً ببندقيته، والعالم مسكوناً بالسلاح لا بالرجال.

تعيد الحروب الإنسان إلى أصله الهمجي. فالمحارب الذي يتقن فن الرقص أو العزف أو الكتابة أو الصناعة، أو المحارب المحترف لمهنة منتجة، المداوم على تربية أولاده، الذي يحب ويصافح ويتألَّم لمشهد مأساوي، ويحزن لانفصال مؤقّت، يعود في الحرب إلى زمنه الماضي، إلى وحشيته الأولى، ينزع عنه قيمه في تقديس الحياة

الإنسانية، ويتخلّى عمّا تربّى عليه من احترام للآخر، أو ما يمارسه في علاقاته الاجتماعية بتهذيب، يفرضه النظر السوي إلى الآخر، ويتحوّل إلى طاقة تدمير هائلة!

صُدم سيغموند فرويد من اندلاع الحرب العالمية الأولى، لم يكن يظن أبداً أنّها ستندلع. راقب بداية القرن العشرين، فرآه يتقدّم إلى سلام ثابت واطمئنان أمين. لكنّها اندلعت أمامه، فكتب في العام ١٩١٥ نصّاً يوضّح فيه نزعة العنف لدى الإنسان التي اندفعت لتدمير «المخزون الحضاري للإنسانية»... وإسقاط ما كان توسماً في الإنسانية.

كما صُدم فرويد أيضاً بالبربرية الجديدة، حيث يتمركز العنف الأقصى في الدولة، «فتسمح لنفسها بممارسة كل الظلم واستخدام كل أنواع العنف» فيما القليل النادر منها يلطخ كرامة الفرد الإنساني. وخلص إلى استنتاجات نفسية/ واقعية. فالتحليل النفسي، يظهر أن الإنسان المتحضّر والموغل في النظام يتخلّى عن كل ذلك ويستغرق في إشباع غرائزه الأولى البدائية.

وفي هذه العودة المفاجئة إلى الذات السحيقة الأغوار، وإلى البربرية الكامنة، والعنف الفائض، تتغلّب صورة موت العدو على موت الفرد المحارب. «إننا نخاف الموت. في الحرب، يستدعى الموت للعدو. يصنع له موت مباغت وعنيف» فيما يصبح الدفاع عن الحياة مساوياً لانتزاع الحياة من الآخر. بمعنى آخر، ينقسم العالم إلى فسطاطين: نحن وهم. لنا الحياة، ولهم الموت. ولا شيء غير ذلك. الأشرار يموتون، بل يجب أن يقتلوا. الأخيار، عليهم واجب تخليص العالم بالقتل.

سِلمياً: إذا كان تاريخ البشرية لا يعدو أن يكون سجلاً للحروب المتناسلة والمتفاقمة، فإنَّ الفكر البشري لم يستسلم لهذه القدرية الطاغية، حيث تظهر فترات السلم النادرة، أنها فسحة استعداد لحروب أخرى، تطيح مكتسبات الهدوء والسلام القصيرة. فالنشاط الحربي ترافق مع يقظة الأفكار والمفكرين لبناء سلام دائم في العالم. لم يتخلَّ الإنسان عن توقه الدائم للسلام، لعالم بلا عنف، لعالم موطد على الحب والعدل. لعالم ينزاح عنه كابوس القتل، ومواكب العنف وكرنفالات العذاب. لعالم بلا رعب وفظائع.

كل تلك الآمال كانت تسقط أمام سطوة الحرب ونفوذها الطاغي، وإصرارها على الحضور الدائم، والتغيُّب خلف غلالة شفَّافة من الوهم. ففي العام ١٧٩٥، كتب الفيلسوف إيمانويل كانط مشروعه من أجل سلام دائم. ظنَّ بعض المفكرين، أنَّ التداخل الاقتصادي بين الدول، والعلاقات التجارية المتبادلة، سيقودان حتماً إلى نهاية عمر الحروب. قيل: «التجارة تقتل الحروب». إذ لا يُعقل أن يتحارب أصحاب المصالح المشتركة. لكن ما لا يعقل، بات معقولاً. فعشية الحرب العالمية الأولى، كانت ألمانيا وبريطانيا شريكين اقتصاديين وتجاريين وثيقين. وما كان مستحيلاً، في نظر هـ.ج. ويلز، بات ممكناً، بل صار واقعاً، واندلعت الحرب. (**حروب الغد** ـ باسكال بونيفاس. ص١٠).

حاول ألبرت آينشتاين وسيغموند فرويد إرساء عالم نظري، يقوم على قواعد من السلام المتبادل. وترافق ذلك مع إنشاء عصبة الأمم بمبادئها «السلمية» ولرعاية «السلام»، و«منع اللجوء إلى الحرب».

كان ذلك يوتوبيا تعرج على دول مستفحلة في مطامعها

واستعمارها وتوسعها. شهية التوسُّع لم تلجمها المواثيق الدولية. الولايات المتحدة نأت بنفسها عن نزاعات لا تمت إليها بصلة. كانت مشغولة في ترتيب حروبها الأخرى، في حديقتها الأميركية، من الشمال إلى الجنوب، وعبر المحيطات، وصولاً إلى الفيلبين. شهية المدى الحيوي استفحلت في القلب الأوروبي الجرماني، واستعادة رومانية المتوسط إلى إيطاليا، أغلقت الباب على سلام ممسوك وهش، وغرق العالم في حرب عالمية ثانية.

انتهت الحرب الكونية الثانية إلى حلم أكثر واقعية: هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، وشرعة حقوق الإنسان، ومقدمة للشرعة الدولية، تؤسس لسلام دائم، وانضباط للحرب. تلك المحاولة الواقعية، حصرت حق الحرب بدول تتعرض للاعتداء، أي حق الدفاع عن النفس، وحق إعلان الحرب على من يهدد السلام الدولي، وربط هذا الحق، بقرار من مجلس الأمن، تطبيقاً لمواد الفصل السابع.

لعلَّ النص كان بديعاً. المحاولة كانت ممكنة التحقيق. إلاَّ أنَّ هذه المحاولة البائسة، لم تمنع الحروب ولا شرَّعت، إلاَّ للنادر منها. فإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد نفّذت حكم الموت قتلاً بـ٩ ملايين إنسان، هم ضحايا في كل بقعة من العالم، وإذا كبّدت الحرب العالمية الثانية هذه البشرية التعيسة ٤٩ مليون ضحية، فإنَّ الحروب والصراعات التي ترعرعت في ظل الأمم المتحدة، قد تخطَّت الـ١٦٠ صراعاً، حذفت من الوجود ما يقارب الـ٤٠ مليوناً.

حدث ذلك قبل سقوط جدار برلين وزوال الاتحاد السوفياتي وحرب الخليج الثانية، ولم يكتمل بعد إحصاء قتلى وضحايا

الحروب كلها في القرن العشرين. إنّه بالتأكيد أكثر من ١٠٠ مليون إنسان. هذا، عدا الدمار الهائل، والجرحى المعطوبين والمقعدين، عدا الآلام والجراح والعذابات والدموع والتأوهات، عدا النفوس المحطّمة واليأس وإدمان التشاؤم والغرق في الفقر والمرض والتخلف، عدا ما لا يمكن أن يُقاس أو يُعد من الخسائر الحضارية والتشوهات النفسية والتراجع الخلقي.

ليس من حق أحد أن يمنع التفاؤل بالسلام... ولكن، على المتفائلين الشرفاء، الذين يتمتعون بنصاعة ضمير وسطوع خلقي، ألا يستعجلوا في بلوغ هذه الغاية، فما زال العالم مؤسَّساً على مؤسسات الحرب، وما زالت القوة هي العنصر الأساس في البناء الحضاري.

إقامة نظام دولي يرعى ويوطّد السلام، بعيد جداً عن مرمى البصيرة الإنسانية والسياسية. وأكثر بعداً إذا توغّلنا في النبوءات الأبوكاليبتية، التي يوقع على جحيمها، رجال يؤمنون بأنّ العالم سيظل غير آمن إلى أجل غير مسمّى. وأنّ عقيدة الدول الأقوى في العالم، هي «الحرب المستدامة... من أجل سلام مستدام».

وكنتيجة لكل ما ورد أعلاه، نطرح السؤال التالي: نحن في عالم مدجج بالحروب، وفي منطقة تزورها الحروب مراراً، وقد خسرنا معظمها، فهل نتنازل عن قوة المقاومة، التي أثبتت أنّها تستطيع أن تعيد التوازن، وأن تحافظ على الحد الضروري من الممانعة؟

دين المقاومة

دين المقاومة(*)

باحثاً عن سبب للاعتذار... قلت: ما لك يا رجل والكتاب الذي بين يديك، يعوّل على الفقه، وأنت لا تعرف غير فقه الأرض؟

غير أني لم أعتذر.

متوكئاً على حذر للدخول في الكتاب، قلت: كن محايداً. مارس قراءة الورق. فالكاتب إمام ورجل دين، وليس حتماً أن يكون الكتاب إماماً.

لكني لم أحذر.

لكن، من أين ستأتيني جرأة الوضوح في الكتابة، إذا وقعت على ما

(*) مناقشة لكتاب «المقاومة في الخطاب الفقهي السياسي» للإمام محمد مهدي شمس الدين.

أشاكسه، وأنا، من زمن لم ألبس قفازاً، ولم أربِّ قلمي على التهذيب، ولا أعرته إلى الصمت إلا خوفاً وجبناً... ونادراً.

لكني تجرّأت... قلت هذا كتاب كغيره، تغاضَ عن مؤلفه وموقعه وإمامته، واقرأه بلا وجل ولا عجل، كأن كاتبه ليس إماماً... ستسعفك السياسة، وستجد مخرجاً لائقاً. وينتهي الكلام بسلام.

وتوكّلت على حيلتي وذكائي، كي أخرج سالماً، وقرأت وكنت خفيف الوطء، بين الكلمات، إلى أن انتهرتني عبارة، أعادت إليّ صراحة القول، فالكلام السياسي السهل ليس مخرجاً لي. ولحرمة النص أنقل ما جاء بعد البسملة تقريباً: «إن الكلام في مثل هذه الأمور، إذا لم يؤدّ إلى تغيير عملي للواقع ينتج عن رؤية صحيحة للمشكلة، وعن منهجية صحيحة للعمل يكون في مستوى الخيانة».

استعدت العبارة مرّتين واستوقفتني كلمة الخيانة. أليس فيها مبالغة؟ أم أن الأمر حقيقي ومخيف! أم أن الكلام في السياسات كإعلان دعائي أمر لا منزلة فيه بين المنزلتين!

الحروف سوداء... على خلاف ما جاء في الكتاب. كأن هناك تعمّداً وقصداً لإلصاق الخيانة بالكلام الذي ليس وراءه عمل صحيح.

قلت: توغّل يا رجل. لعلّ في النص ما يفيد في تأكيد الخيانة أو في نفيها.

أتلو ما قرأت: «غدت هذه القضية (الفلسطينية) مادة دعائية للحكومات والحكام والأحزاب، وقد كان هؤلاء جميعاً يضللون جماهيرهم باستمرار، مما كوّن لدى الفرد العادي انطباعاً راسخاً

بأن الوجود اليهودي في فلسطين بناء هشّ سينهار بسرعة فائقة»، وجاءت نكسة حزيران.

أيها الإمام، نحن الجيل الذي خانوه، صدّقناهم أنها ستزول. وكنّا بعد كل خطاب تحريري نصفّق ونعود إلى بيوتنا، مبتهجين بالنصر القريب. ولما انطلقنا للتطوع من جامعاتنا للمشاركة في الانتصار عشية الخامس من حزيران، كانت إسرائيل تغرز انتصارها في النخاع العربي والعقل العربي، الذي استقال من إبداعه ومنطقه، لكلام دعائي... يرطن بالوطن، ويخطئ في تهجئة القضية، ويعكّز على جراح الوطن، ليقيم على نزفها عقيدة حكمه.

نحن الجيل الذي ولد في الضلالة... وأصيب في مطلع شبابه بوطأة الخيانة... إننا ضحايا الكلام.

وهنا، كدت أتوقف عن القراءة، قلت: اعتَذِرْ يا رجل. احتجب بحجة ما، فلا الفقه يسعفك، ولا السياسة مخرجك. فالحد الفاصل بين الكلام الصحيح والكلام المغلوط، في مثل هذه النواحي، إما مصان بعفاف البراءة، وإما ملوّث بتهمة الخيانة. وهذه الأخيرة دينونة لا يتحملها إلا من كان عنده الكلام بضاعة يروّجها من أجل سلطة محاطة بشعب يعتبره من فصيلة النمل.

واستذكرت قصيدة أبو ريشة:

لا يلام الذئب في عدوانه... إن يكُ الراعي عدو الغنم.

بعدها استويت على قراءة الكتاب دفعة واحدة، فإذا أنا أمام رجل لا أمام كتاب. أمام سجل لمواقف ومواقع وعذابات وآلام وجراح

وخيانات وحروب واستنزاف وتهجير وشهداء وأزمنة متواصلة بحمولة شاهقة الأحزان والإخفاقات.. ولما خرجت من الصفحة الأخيرة ـ مثقلاً بهذه الذاكرة التي سجلت لثلاثة عقود تقريباً، من محن الحرب وامتحانات الفتنة، واقترافات العدو الإسرائيلي ـ تنفّست الصعداء، مردّداً ما قاله الشاعر ت. س إليوت: «إن الجنس البشري لا يستطيع أن يتحمل قدراً كبيراً من الواقع» فكيف تحمّلنا هذه الحروب... (ولكن) عن طريق الزمان وحده، يقهر الزمان». (من كتاب **رباعيات أربع**، لإليوت).

كم تبدو هذه الجرعات السياسية، على مرّ ثلاثة عقود، شديدة الوطء، ثقيلة الحمل؟ ثلاثون عاماً تبدأ بالخامس من حزيران إلى حروب التتار الصهيونية المتنقلة، وحروب الإخوة الأعداء، والعرب الأعراب الأغراب وصولاً إلى حالة أضحت فيها إسرائيل الحليف المعلن والخفي، لفصول الحرب اللبنانية، ولأكثر من طرف، وصولاً إلى حالة عربية أضحت فيها إسرائيل شرّاً لا بدّ منه، لترتاح الأنظمة من عبء القضية الفلسطينية...

في الكتاب معاناة ثلاثة عقود، وأصل البلاء فيها إسرائيل، التي ظن بعض اللبنانيين أنها في خدمتهم، بينما كانت هي ضد الجميع وكانت مع نفسها «تستخدم كل ما تستطيع استخدامه، فإذا فرغت منه تلفظه كما تلفظ النواة».

يلتقي الفقهان: الديني والقومي، في اعتبار إسرائيل تهدّد وجودنا. وأن لا صلح ولا اعتراف، بل مقاومة سياسية ومدنية وعسكرية.

إسرائيل في الكتاب شرّ مطلق، يقابلها عرب في هزيمة تبرّر لهم

تقاعدهم... الاستراتيجية العربية الموحدة التي يطالب بها الإمام شمس الدين، ضرب من مستحيلات العصر. فالعرب من حيث هم أنظمة أولاً، وشعوب متثاقلة ثانياً، منسجمة مع مستلزمات الهزيمة. إنهم يتشبثون بمنطق الضعف الذي يلبسونه، ولا يريدون أن يبلغوا إلا حالة الاستقرار. فقد جرّبوا العيش مع الهزيمة، ووجدوه أقل كلفة من الانتصار. وإذا كان أصل الحساب هندياً، فقد أتقن عرب القرن العشرين، لعبة الحساب جيداً... وهم يفضّلون حساب المصالح الدنيا على حساب المصالح العليا، والمصالح الميسورة، على المصالح العسيرة، والمصالح الرخيصة على المصالح الثمينة، مصالح الأنظمة على مصالح الشعوب. «فقادوا حروباً بالتقسيط وحصدوا لنا هزائم بالجملة» وتبرأوا منها... وقبضوا ثمنها.

ثم، والوضوح يكتمل، عندما تحدّد إسرائيل بذاتها وبغيرها معاً. فهي وحدها أقل من معناها ومن وجودها. ولذا، يرى سماحته، أن إسرائيل شريك صغير في الهدف الاستعماري. «وأميركا بإعلان تحالفها الاستراتيجي خطياً مع إسرائيل، تدخل شريكاً عملياً مع إسرائيل في كل غارة على أرضنا وشعبنا».

عدوّان في جسد واحد: أميركا في العالم تُدعى الولايات المتحدة الأميركية. وفي الشرق الأوسط تُدعى إسرائيل. هل تصحّ التسمية أم أنها مبالغة؟

ثمّة مطلب آخر، لمواجهة إسرائيل، وهو استراتيجية عربية إسلامية، على قاعدة تفرض أن فلسطين أرض إسلامية، وأن الجنوب أرض إسلامية كذلك.

أولاً: إن الأرض الفلسطينية والجنوب اللبناني من صنع التاريخ ومن بكر الجغرافيا. وكلاهما تكنّيا باسم التاريخ الذي يتواصل ولا ينقطع.. الأمة، ابتداع اجتماعي تاريخي عبر الأجيال والعصور، ومحمولاتها، حضارية ودينية وثقافية وأقوامية. لذا فللأرض هوية غير دينية، على ما أظن وأفترض.

ثانياً: إذا كانت فلسطين إسلامية، فما بيت لحم؟ وما القدس؟ وإذا كان الجنوب أرضاً إسلامية، فما كسروان وبشري وسواها. إن للأرض هوية التاريخ على ما أظن وأفترض. وفي هذا نختلف. هوية الأرض لا دين لها. الدين ينتسب في مواجه التاريخي، وتجسده الاجتماعي، وتفجّره الفكري، إلى أرضه المختلفة والمتنوعة.

ونقلب الصفحات لنصل إلى حيث للكلام معنى العقل ومغزى التحقق.

المقاومة هي الرد الطبيعي والدائم، برغم كل الظروف لا «الأسلوب العربي في العمل الذي أضاع فلسطين وخلق قضية الأراضي المحتلة وهو الذي سيضيّع الجنوب وينشر فكرة التفتت والضياع في كل المنطقة» (ص٤١).

وناصعة تبرز المقاومة في أحلك الظروف، وإبان الاجتياح الإسرائيلي الوحشي للبنان، على مرأى ومسمع ومرمى العرب، سقطت بيروت بعد الجنوب، إلا أن شيئاً لم يُسقط الإرادة القوية في أن تقول لا.

لا، في اللغة، حرف نفي... لا، في بيروت، كانت الفعل الذي يختصر كل الأفعال العربية.

كانت بيروت جنوباً...

حافة البرّ عادة بحر... حافة الجنوب كانت بيروت، وحافة بيروت كانت من الدم وحافة العرب مال ونفط.

كانت العتمة كالحة، والعالم يتفرج... والكارثة مشروع الجميع، حتى إنها مشروع الذين ظنّوا أنهم بإسرائيل ينتصرون. يومها أعلن سماحته المقاومة المدنية الشاملة، انطلاقاً من شرع ديني وشرع وطني وشرع قومي... ويومها كانت أحزاب علمانية تعلن أيضاً المقاومة المسلّحة.

كم يبدو الأمر منطقياً وصائباً عندما يلتقي فقه السماء بفقه الأرض. ودليلنا ما جاء في الصفحة ١١٥ عن النقاط السبع، من مبادئ المقاومة المدنية الشاملة، المقاومة التي تبدأ بقول لا للاحتلال... لا، حتى ولو كان الاحتلال ينوء بثقله فوق الصدر والعقل والقلب. لا... غير مؤقتة بظرف، بل مؤكدة باستمرارية التاريخ في مواجهة العدوان.

حتى الآن يبدو كل شيء حسناً تقريباً. وعلينا الآن أن ننحاز إلى الأسئلة، بعد شواهد وملاحظات:

أولاً: لماذا كانت وأصبحت المقاومة حكراً على جزء من طائفة أو جماعة من مذهب؟ ألا يفترض، والاحتلال لجزء من لبنان، أن تكون المقاومة لبنانية، ليس بالاسم كما يطرح الآن، بل بالفعل كما هو مفترض؟

يقول سماحته: «العدو يريد أن يلغي دور الوطن وطموحات

المواطن ليجعل لبنان محمية إسرائيلية ومن اللبناني مجرد تابع يخضع لنفوذ الحكم الإسرائيلي، لذا ينبغي أن تتضافر جميع الجهود للتعبير عن الرفض والمقاومة لكل أشكال الوجود الإسرائيلي... ويجب ألا يقتصر هذا على المسلمين وحدهم، فإن لبنان ليس للمسلمين وحدهم وليس لبنان عبارة عن المناطق الإسلامية» (من نداء في اليوم الثالث للاجتياح الإسرائيلي للبنان).

وما زال السؤال مطروحاً، أليس لأن لبنان بلد الطوائفيات المتصالحة على زغل في الحقوق والمكاسب هو السبب؟ أليس لبنان الدولة «الظالمة» دولة الامتيازات والطوائف والنظام الطائفي التي قال عنها سماحته «سنحطم دولة لبنان الظالمة... وسنبني على أنقاضها الدولة العادلة». (ص٥٧)

وما زالت الأسئلة كلها مطروحة. أسئلة برسم وجود لبنان وهويته. لأن، كما يبدو لي، على ما أفترض وأظن، أن لبنان الواحد، لم يوجد سابقاً ولم يوجد الآن. ولذا، ما زال الهمّ الجنوبي جنوبياً وشيعياً. هكذا كان وهكذا هو الآن.

ولا بد من ملاحظة: أن سماحته، يؤكد دائماً على وحدة لبنان وعلى وحدة اللبنانيين. ولكن المعضلة في كيفية الوصول إلى الوحدة... وإمكانية تحقيقها... فهل عبر الطوائف؟

نعود إلى الأسئلة: ما هو العدل الطائفي، حتى تستقيم معادلة العدل الوطني طائفياً؟

لا بد من تربيع الدائرة، كي يستقيم إقليدس السياسي.

في وصف الواقع المأساوي للشيعة عموماً والجنوب تحديداً يقول سماحته: «مضت عهود وعهود على هذا الوطن والناس فيه طبقات والطوائف فيه مستويات. هناك مستوى أعلى وهناك مستوى أوسط، وهناك مستوى أدنى... كنّا نقول نعم، كنّا نرضى بالقليل لأنه خير من الحرمان، وكنّا نرضى بالحرمان لأننا لا نستطيع القليل».

صح... هذا الوصف دقيق. وأنا ابن منطقة خضعت لهذا القانون الطائفي الراقي، الذي ينزل الطوائف مراتب وعانينا منه.

وصحيح أن سماحته يرفض أن يكون هذا التعبير عن الطائفة الشيعية المحرومة، ولكنها شيعية.

والنفي بالكلام ضروري، ولكن المضمون يعبّر عن ضرورة مساواة الشيعي في طائفته بغيره من الطوائف «الممتازة» أو «السوبر». يقول: «إنما نهدف إلى أن نملأ مكاننا الخالي، لا نريد سوى العدالة والمساواة اللتين ينادي بهما الجميع. نريد أن ننشئ لبنان تسوده العدالة والمساواة، ويسوده حكم إنساني، حكم يتحسّس آلام الناس وأوجاعها، حكم يتسم بالحسّ الإنساني، تقوده روح العدالة والمساواة».

نعود إلى تربيع الدائرة... والعدل الطائفي.

الصراحة هنا ضرورية، ولو كانت قاسية: العدل الطائفي يثبت النزاع الطائفي.

كيف؟

كي تنال طائفة ما حقوقها، عليها إما أن تأخذها من طائفة أخرى متميزة في مواقعها، وهذا يثير شحنات طائفية استئثارية واستعلائية، وإما أن تأخذ الطائفة حصتها من بنية الدولة.

واتفاق الطائف، ربّع الدائرة. أخذت الطوائف من الطوائف، وكلها أخذت من الدولة، حتى بتنا اليوم كانتونات طائفية غير معلنة، في ظل لا دولة، وفي غياب مؤسسات.

ظلمٌ في السوية عدل بالرعية؟؟؟

ثم: أليس هذا التوحيد الطائفي القسري، مبنياً على مصالح مؤقتة، في وقت لم يجد فيه لبنان بسبب تعدده الطائفي وعدوانية هذا التعدّد، مهما زيّنا النصوص بألطاف الكلام، حلاً لأيّ مشكلة من مشاكله الوجودية؟

ثم: أليست إسرائيل خطراً على وجود لبنان؟

ثم: أليست الطائفية، سياسية كانت أم اجتماعية، أم ثقافية، بعيداً عن مشروع الدولة، تهديداً لوجود لبنان؟

ثم: ما موقف اللبنانيين الموحّد من قضية فلسطين؟ من الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية؟ ومن الاحتلال للجنوب؟ ومن المقاومة لهذا الاحتلال؟ ومن محاولات تفسير مشبوهة للقرار ٤٢٥؟ ومن العلاقة مع سورية؟ ومن العلاقة مع العرب؟ وما هو موقف اللبنانيين من أنفسهم والآخر الذي لا يرى إلا في مرآة الطوائفيات؟

يقال: الرياضة أدق الموازين لمعرفة اتجاهات الريح السياسية.

وأقول: لقد فضحتنا الرياضة، وحسناً فعلت، إذ دلّت على أن النظام الذي كنا نشكو منه قبل الفتنة، صرنا نرثيه ونؤبّنه ونشيد بمزاياه بعدما عرفنا فضائل الطائفية في عهد ما بعد الطائف.

إن الكتاب الثمين الذي بين أيدينا، يحفل كثيراً بالمعاني العميقة، والمواقف المشرّفة، والدعوات الصريحة، والاعتدال الضروري، والجرأة اللازمة، والأعباء المكلفين بها... ولكنني أتصيّد كلمة مرّت مراراً في أكثر من صفحة من صفحات الكتاب: كلمة المواطنة وضرورة ممارستها.

في لقاء صحافي مع سماحته، قلت له: جئت أشكوك إليك. فأنا مواطن وأريد أن أمارس مواطنيتي. وكان الجواب، لا تستطيع ذلك، إلا بعد العبور بالجسر الطائفي. وفهمت أن المواطنة والطائفية لا تلتقيان، إلا من حيث السكنى. فأنا مقيم مغاير للآخرين، في أرض موزعة بين الطوائف، أنصاباً وحصصاً وسلطات ومراكز.

المواطن اللبناني، بهذه الصفة، يظن نفسه أنه مواطن، ولكنه يعيش في ظل نظام التعدّد الموحّد قسراً، إنه «مواطف»... والبلد الذي يسكنه ليس وطناً، بل إنه «وطف»، إن صحّ النحت.

ونعود إلى السؤال، كيف تكون المقاومة واحدة، ولبنان بصيغة الجمع المتنابذ، لا يستطيع أن يتقدم خطوة أو يقدّم فكرة، بدون أن يشعر بأن الأرض مادت طائفياً، وقد تطيح البقية الباقية من الوطن.

يقول سماحته «إن الفتنة الدامية في لبنان من خلل في بناء الوطن مكّن القوى الخارجية من التدخل الذي أدّى إلى زيادة الانقسام

الذي بات يهدد مصير الوطن».

صحيح هذا... مع تفسير ضروري، بأن البناء كان طائفياً يعرج أو يعكز، على ما يقوله جورج نقاش، وهو الآن مخلع، ينتقل من غرفة العمليات إلى العناية الفائقة.

صحيح هذا... مع إضاءة لازمة جاءت على لسان سماحته ضد ملوك الطوائف: «نريد إلغاء المجتمع الطبقي الطائفي وتحرير البشر من كل أشكال الإقطاع السياسي والاقتصادي» ويستقيم القول مع المنحى الشمولي لدعوته هذه، ويتعثّر مع الواقع الحالي الذي يزداد فيه التمييز الطائفي والمذهبي الطبقي شراسة، تبدو فيه الأيام الخوالي نعمة أجحفنا بحقها بعض الشيء.

أما الحكم والحاكم والمحكوم فسؤال تاريخي، كتب فيه سماحته في احتفال يوم الغدير، حيث بدا كلامه في الحكم والحاكم، من الوجهة النظرية ميزاناً للعدل والمساواة، عندما ربط الحاكم بالشعب، لا بالطوائف، وبثقافة الشعب، لا بثقافة الطوائف، وبمصلحة الشعب وكرامته وسعادته ومستقبله... بلا إضافة الطائفة...

ولا بأس في أن نعرّج على سؤال من خارج الكتاب ولكنه على صلة به. هل يحق للبناني أن يحبّ بحرية وكيف؟

إن مسألة الزواج المدني، المطروحة لغايات في نفس أكثر من يعقوب، أغفلت حقاً من حقوق الشبان والصبايا: وهو حقهم في الحب.

إن المقاومة المدنية، التي تحدّث عنها سماحته، في مواجهة

الاحتلال، يلزم أن تنطلق من مساحة مدنية، يشعر فيها المواطن بمواطنيته وحريته تحت سلطة القانون... لماذا لا يسمح لنا بأن نحب... فالحب دين إلهي، على ما تقوله رابعة العدوية وأبو يزيد البسطامي والسهروردي المقتول وابن عربي... لماذا لا نعطى حفنة من هذا الحب لنمارسه في مجتمع مدني.

هل تجاوزت الحدود؟

يبدو لي أحياناً أن بعض الحدود يجب تجاوزها. وإلا صرنا عبيداً لأصنام. والنظام الطائفي الذي تلعنه الأكثرية، صنم جامد يقدّم لبنان أضحية أمام قدميه.

هل تجاوزت الحدود؟

يبدو لي أن لا... وسأتلو من الكتاب نصاً يبرئني: «إن لكل إنسان كربلاء... وإن لكل جماعة كربلاء، بما لكربلاء من معنى إنساني شامل، المعنى الذي يضع الإنسان أمام خيارين، خيار أن يرتفع وأن يضحي، وخيار أن يخون وأن يظلم.

في الماضي، ربما وجد كثيرون كانوا يفشلون في هذا الخيار، أما الآن فإن الفشل في هذا الخيار يعني الموت السياسي والوطني والوجودي، لأن إسرائيل بالمرصاد، لذلك، فإن خيارنا الكبير الشريف جميعاً، يجب أن يكون اختيار هذا الوطن واحداً غير مجزّأ بأي شكل من أشكال التجزئة، واختيار هؤلاء المواطنين على اختلاف المذاهب والطوائف نتعاون جميعاً على إقامة دولة العدالة والمساواة».

مَن اليوم ممكن أن يضحي ويرتفع ليكون بالمعنى الإيجابي لكربلاء؟

إننا نعيش زمناً تهافتت فيه القيم السياسية والاجتماعية والنفسية، حتى إن البعض صار يطلق على ما نعيشه فعل هزلت... ولقد هزلت.

* * *

أما بعد... فلا بد من خاتمة.

عندما يلتقي فقه السماء بفقه الأرض تستقيم الصلاة الوطنية.

فهل حان وقت الصلاة؟

إذن:

حيّ على الصلاة... للوطن وشكراً.

المقاومة قبل العمامة

أتذكر كلاماً للرسول الأكرم محمد بن عبد الله يقول وهو يتحدث عن المسلمين: «سيأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه. مساجدهم عامرة بالبناء خراب من الهدى» وأتذكر أيضاً «أنني لا أعترف بالحسينية إلا إذا خرّجت أبطالاً يقاتلون العدو الإسرائيلي».

هذا كلام السيد موسى الصدر، أقرئوه السلام، فيطيب له المقام، أينما كان، فسلام عليك حيث أنت.

محزن غيابك أيها السيد، فمن يسد رمقنا إليك؟

موجع اختفاؤك المرير، فمتى تأذن لنا بحضورك؟

مقلق انتظارك المزمن، فهل تسمح لنا بأن نحتال على الوقت،

فنحضر إلى محرابك المقيم في نصوصك ونسير إلى صراط نضالك ونتحدث عنك في غيابك؟ نعدك أن يكون حضورك بيننا كثيفاً وسخياً وعاقلاً، حضوراً لا يحتاج إلى مكان أو يقيده زمان.

أستدرك قبل العبور، باعتذار شديد، فبيني وبين رجال الدين مسافة لا أستطيع عبورها بسهولة. فهم في مقام يحاط بهالة، ورتبة مصانة بالاحترام، ومقدمة لا يطأها غيرهم. وهم، في شبه عصمة لدى أتباعهم المؤمنين، ويصعب الحوار. لذلك، نادراً ما سلكت هذا الطريق، فأنا أفضل الصفوف الخلفية، والوقوف جانباً، وأمتهن كلاماً لا يتسم بالعصمة، ويتوكأ على الصواب حيناً والأخطاء أحياناً.

غير أني حاولت بوجل أن أعبر المسافة ما بيني وبين علماء الدين، أذكر، أنني حاولت أن أكون رجل دين فقصرت ولم أكرر المحاولة. وأذكر أيضاً، أنني حاولت الهرب مرة من حوار وفشلت. حدث ذلك بعد صدور كتاب المقاومة في الخطاب الفقهي السياسي لسماحة الإمام محمد مهدي شمس الدين، رحمه الله. فقد وردني اتصال هاتفي يدعوني إلى حلقة نقاش لهذا الكتاب. تردّدت، ثم وافقت مبدئياً، متكلاً على كذبة أخترعها في الوقت المناسب لأعتذر.

تأخرت عن تأليف الكذبة، وزّعت بطاقات الدعوة، واسمي محشور بين وزيرين ونقيب ورجل دين. قلت في نفسي، من أين المفرّ؟

اعتلينا «المنبر» وبدأ الكلام. فتحت ملفي، فنظر إليّ وزير مشارك

فقرأ عنوان مداخلتي: «المقاومة في الخطاب الفقهي السياسي لسماحة الإمام»، مراجعة نقدية. فاقترب من أذني وهمس: «إمام وبدّك تنتقدو؟» فقلت: سرت على المنافز، فلا حول ولا.

تأملت الصفوف الأمامية، نواب. وزراء. رجال دين من كل الطوائف. أهل فكر، ففركت أصابعي ندماً وقلت: ورطة.

وتلوت نصّي النقدي المكتوب، بعدما استمعت إلى نصوص المنتدين الذين مدحوا وأجادوا في تقييم الجوانب الإيجابية من الكتاب. وكنت أتأمّل رؤوس المستمعين في الصفوف الأمامية، فكانت تنحني تأييداً.

والتفتّ أثناء تلاوتي لمحاولتي النقدية، فكانت الوجوه حاسمة وصارمة ومتعجبة. ولما انتهينا من الحوار، لم يصافحني إلا قلة من أصحاب العمائم.

يومها، كان سماحته مريضاً. ولم يكن بين الحضور، فلمّا استمع إلى التسجيل الصوتي، اتصل بي مساءً وهنّأني على ما أثرته من نقاش، ووعدني بلقاء وحوار.

تذكرت: «وجادلهم بالتي هي أحسن»، و«تعالوا إلى كلمة سواء».

نعم: كلمة سواء، جعلتني أدعو سماحة السيد موسى الصدر لإلقاء محاضرة في مشغره، في أوائل السبعينيات. فقدّمته في الحسينية، فاعتلى منصة الكلام، يتحدث عن فاطمة الزهراء، وعن وعن... ومن ذلك الكلام أنقل إليكم ما قال: «إن منطقة البقاع الغربي متخلفة في كل شيء إلاّ في الإرادة الوطنية الصادقة التي ستحرك

وترفض الظلم والانحراف. نحن نقول، يا لبنان الخالد، عليك أن تبني نفسك اجتماعياً. لبنان القديم إذا أراد أن يستمر في العيش الغبي الظالم فسيموت غداً أو بعد غد. في بلاد أخرى، جرّبوا الاستئثار وتجاهل المعذبين فسقطوا وهدمت أنظمتهم. في هذا البلد ظلم والظلم يدعو إلى الانفجار».

ويا سماحة السيد، ما زال في هذا البلد ظلم وما زال في هذا العالم ظلم. إننا في عتمة مظلمة وظالمة وفادحة.

فلنفتح الباب ولنقرأ ما قاله الإمام:

أولاً: في الطائفية.

ما أتلوه الآن يجعلني من أتباعه الدؤوبين:

يقول: «الطائفية عندنا هي عقدة العقد، لأنها تشكل السلبية في هذا البلد. علينا أن نتطور عقلياً. وتطورنا العقلي دولة وشعباً، هو المسّ بالروح الوطنية (المواطنة). إذا أردتم أم لم تريدوا، فلبنان محتضر إذا بقيت عقليتنا على ما هي عليه. نحن لسنا قلقين على لبنان فحسب. بل خمسين قلقين عليه» (ندوة الاثنين).

ويا سماحة السيد، لم نتطور عقلياً. تخلّفنا. كنا في طائفية، وتحولنا إلى طوائفيات. ومن حقنا أن نقلق. ليس كما يقلق المسؤولون طبعاً.

في محاضرة ألقاها في مدرسة القديس يوسف في عينطورة بعنوان: «الطائفية والشباب في لبنان»، إشارة واضحة ودقيقة إلى الغنى

الثقافي والروحي في الطوائف، معتبراً الطوائف ينابيع مختلفة في مجتمع واحد. فهي أشبه بالنوافذ المختلفة (للوطن وعلى الوطن)، ولكن، «بالإمكان أن تتحول الطوائف إلى قاعدة للاستغلال والشرور ووسيلة للتعصب ولإثارة أخطر الخصومات، الخصومات التي تتلوّن بلون القداسة. (إن) حساسية الطوائف وقدرتها ودقتها وإمكانية تأثيرها في النفوس تسهل مهمّة الشريرين».

يا سماحة السيد: لقد بلغ الشر قامة عاصية، بسبب الطائفية، تماماً كما قلت، عندما تحدثت عن النظام الطائفي: «حتى لو كان النظام الطائفي نظاماً مثالياً، فهو قد أساء إلى الطوائف وأُساء إلى الدين. نتساءل: هل الطائفية هي أفضل وسيلة للحياة في مجتمع. بإمكاننا أن نقول لا. إن النظام الطائفي في الحقيقة يتناقض مع اعتماد نظام الكفاءات».

يا سماحة السيد: لقد أُطيح العلم والقيم والكفاءات، ولم يبقَ لدينا إلا رعاية الفساد العام وحمايته وتعميمه.

ما الحلّ. في نظر سماحته دعوتان: واحدة إلى قيام دولة المساواة والقانون، والأخرى، التسلّل الطائفي، للتساوي الطائفي.

ألف: يشرح السيد ويقول: «كل إنسان يعيش في ظل القبيلة، يحتمي بالقبيلة، وكان يكلفه هذا الانتماء غالياً (مالاً وكرامة)، ولكنه كان مضطراً إلى ذلك لأنه لا يجد حماية عن نفسه وعن كرامته وعن حياته إلا قبيلته. ماذا قضى على القبائل وعلى الشعور القبلي في العالم؟ حماية الدولة. حينما قامت الدولة بحماية الفرد، لم يعد يشعر الفرد بأنه بحاجة إلى الانتماء إلى قبيلته. وجد أن

القانون يحميه. وجد أن القانون ينتقم من خصمه. وجد أن القانون يصون حقوقه، وجد الإنسان بديلاً عن حماية القبيلة في الدولة فترك القبيلة».

يا سماحة الإمام: نحن بعد غيابك القسري، بلا دولة، وبلا قانون، وتحت رحمة الطائفية الفاسدة والمفسدة والمهانة. الميثاق الوطني اللبناني الذي كنت تشكو منه، لطائفيته وامتيازات البعض فيه، تحوّل بعد حرب وقفت بكل قواك لمنعها، إلى نظام طائفي مستشرس، إلى نظام الغاب الطائفي، بلا قانون ولا دولة.

ويتساءل: «هل نجح النظام الطائفي في تعميم العدالة الاجتماعية بين المواطنين في لبنان؟» بالطبع لا. ولذلك، يخاطب السيد الشباب ويناديهم: «أيها الشباب، اخلقوا بديلاً عن الحماية الطائفية. أتمنى ذلك اليوم الذي نرى فيه شباباً يقفون لكي يدافعوا بالفعل عن حقوق طائفة أخرى. (ليحموا) الحقوق المهدورة أينما وجدت. (في هذه الحال) المواطن لا يشعر بالحاجة إلى أن يستند إلى طائفته أو عائلته أو جماعته».

باء: الدعوة إلى الانتظام الطائفي للقضاء على الطائفية. وهذا ما لم ينجح في لبنان. وهذا ما لا أقتنع به، ولا أجد إلا نتائج جاءت عكس ما توقع سماحته. يقول السيد في محاربة الطائفية ما يلي: «النظام الطائفي لم ينجح في حماية الطبقات المحرومة والدفاع عنها. هذا الذي جعل أناساً مثلي يحاولون أن يتسللوا عن طريق الطائفية للقضاء على الطائفية».

هنا، اسمحوا لي أن أبدي بعض الملاحظات المعروضة على العيان

ولا تحتاج إلى كثير من البراهين:

أ ـ الطائفية لا تحارب بطائفة. الطائفة المتميزة لا تحارب بطائفة محرومة. العدل الطائفي مستحيل. فالطائفية لا حدود لمصالحها. وهي كلما أخذت ازدادت جشعاً، وإذا انتقص منها، استقالت من الوطن وأحبطت.

الطائفية تنصر أبناء طائفتها، أو قلة قليلة منهم، من خلال تأمين المصالح من مصدرين اثنين: إما انتزاع من الطائفة الأخرى، وإما انتزاع من الدولة. فإذا كانت الدولة قد عهد إليها رعاية الطوائف في الميثاق الوطني، فإن الطوائف اليوم، ترعى الدولة، حتى لم يبقَ من الدولة، إلا ظلالها الطائفية المتهالكة.

على أنني أستدرك لأقول، إن سماحته عندما انطلق في ورشة الإصلاح، والدعوة إلى حركة المحرومين، لم يكن محاطاً بطائفته، لأنه تشيع للمحرومين من كل الطوائف. في هذا الصدد، كان تشيعه للمساواة والعدالة والتنمية، وصولاً إلى ما كان يحاول أن يراه من بعيد «أنا بانتظار تلك الأيام وذلك الوقت الذي نرى فيه نواة لبناء لبنان المستقبل. لبنان الذي تحول كله إلى طائفة واحدة، إلى طائفة الإنسان».

في بداية ذلك التحرك الذي قاده سماحة السيد موسى الصدر التفّت حوله نخب ثقافية وفكرية وأدبية وفنية، انطلاقاً من أن الحركة بمظهرها وبقاعدتها الشعبية الفاعلة، إنما هي حركة شعبية لبنانية ذات أبعاد وطنية عامة، وما تقتضيه من ضرورات الإنماء الشامل، في أن تتطابق مع الرغبة العامة في التغيير وفي الانتقال

بلبنان والشعب اللبناني إلى مستوى الدولة والمواطنية الحقيقية. القضاء على التخلف، ومواكبة القضية العربية الأولى في فلسطين وتجسد المناخ والوعي المطلوبين في مجابهة العدو الصهيوني.

هذا البيان وقّعت عليه ١٩١ شخصية لبنانية، أذكر منها: ميشال أبو جودة، هنري أبو خاطر، فاروق أبو اللمع، نجيب أبو حيدر، ميشال إده، إلياس مقدسي إلياس، ميشال أسمر، جاكلين باز، أمين الباشا، كمال بخعازي، ليلى بعلبكي، مارون بغدادي، غسان تويني، برنادت جرجيان، جورج جرداق، باسم الجسر، رولان الجميل، جبران حايك، أنسي الحاج، فايز الحاج شاهين، هدى الحسيني، بيار حلو، مروان حمادة، يوسف الخال، المطران جورج خضر، بول خوري، شوقي خير الله، عمر الداعوق، نديم دكاش، محمد دمشقية، أمين ألبرت ريحاني، مي ريحاني، عبد الله زخيا، نقولا سركيس، فؤاد السعد، أندره سكاف، فاروق سليم، ميشال سليمان، ميشال سماحة، أحمد سويد، جوزف شامي، بول شاوول، فؤاد شبقلو، رفيق شرف، منير شماعة، طارق شهاب، حنان الشيخ، بيار صادق، جوزف صايغ، سمير الصائغ، هنري صعب، جواد صيداوي، بهيج طبارة، ميشال طراد، رياض طه، أنطوان غانم، لور غريب، وليد غلمية، جان فارس، سمير فرنجية، نزار قباني، أديب قدورة، رضا كبريت، أنطوان كرباج، جميل كنعان، يواكيم مبارك، عصام محفوظ، صلاح مطر، كلوفيس مقصود، ألبير منصور، إبراهيم نجار، فؤاد نعيم، إلى آخره.

أذكر هذه الأسماء، وهناك العشرات والمئات غيرها، التي وقعت على بيان يؤيد حركة النهوض بالمحرومين من كل الطوائف.

ماذا حصل بعد ذلك؟

لا عجب، لبنان يمتلك آليات ضارية لتحويل معظم القضايا إلى قضايا طائفية. فتحولت الحركة إلى شيعية، تماماً كما حصل مع الحزب التقدمي الاشتراكي، الذي بدأت قيادته مؤلفة من نخب لبنانية من كل الطوائف والمذاهب والمناطق، إلى حركة درزية.

الطائفية لا يمكن محاربتها بسلاحها. هي طائفة السلاح الذي تستطيع أن تفتك بنا به، فسماحته قال إن أهم محنة في لبنان، ذلك السلاح الخطر الذي يحول الأزمات، كل الأزمات، إلى الأزمة الطائفية. يعني إلى الباب المسدود. هذا السلاح، هو استعمال الدين في خدمة الكفر، والحق في سبيل البطالة، والعدل في سبيل الظلم، والرحمة في سبيل القسوة.

كان السيد يتطلع إلى مواطنية فتضرجنا بالطائفية حتى الدم، وسفكنا النسيج اللبناني الوطني، وطعنّا به مصيرنا القومي.

كان يعلن ويقول على الملأ: «لقد ذهب الزمان الذي يقرر فيه الطغاة أن يغيّروا ألبستهم ويعودوا من جديد ليتحكموا بالناس».

يا سيد، لقد عادوا، فهل علينا أن ننتظر أكثر؟

«لذلك، فإن حركة المحرومين تؤمن بالحرية الكاملة للمواطن وتحارب كافة أنواع الظلم من استبداد وتسلط وإقطاع، وتعتبر أن نظام الطائفية لم يعط ثماره، وهو الآن يمنع التطور السياسي ويجمد المؤسسات الوطنية. ويضعف المواطنين فيزعزع الوحدة الوطنية. إنها ليست حركة طائفية ولا تهدف إلى تحقيق مكاسب

فئوية. إنها حركة المحرومين جميعاً».

هذا من ميثاق حركة المحرومين سنة ٧٥. فماذا بقي من المواثيق والمواقف؟

ثانياً: في المسألة الفلسطينية

سؤال: سماحة الإمام، لو كنت مكان المطران إيلاريون كبوجي، وطنك محتل وأسير فماذا تفعل؟

السيد: الجواب واضح، فأنا أعرف مثل كل الناس أن إسرائيل هي العدو للعرب وللمسلمين وللمسيحيين وللإنسانية ولله سبحانه وتعالى. ولعل الذين يتمنون الشهادة في سبيل الله لا يمكنهم أن يبحثوا عن موقف أشرف من هذا الموقف.

سؤال: ولو احتلّ العدو الإسرائيلي لبنان، أو جزءاً من أراضيه؟

جواب: بدون تردّد سأتحول إلى فدائي.

سؤال: ولباسك الديني ماذا تفعل به؟

جواب: إذا كان لباسي الديني سيمنعني من العمل الفدائي للدفاع عن الوطن، فسأتركه فوراً.

يا سماحة الغائب، لقد اتّبعوا الوصية وحاربوا. حاربوا كما قلت، «سندافع بأسناننا وأظافرنا وبنادقنا الصغيرة عن أرضنا (في الطيبة). «كونوا فدائيين إذا التقيتم العدو الإسرائيلي، استعملوا أظافركم

وسلاحكم مهما كان وضيعاً» (محفوظات المجلس).

مرة تجرأتَ وقلتَ في عاشوراء، وعاصفة الدمع تحتل المآقي بكاء على الحسين، صحت بالحزاني: «حسين البكاء والعبرات لا أؤمن به، البكاء والعويل والتنفيس ورفع الحقد لا أؤمن به، وعلى كل شاب أن يتدرب ويحمل السلاح ويلقّن العدو درساً».

لقد فعلوا ذلك حتى رمق الشهادة. وحرّرت المقاومة اللبنانية والإسلامية جنوب لبنان، إلا قليله وهو عزيز، وها هي فلسطين، تقبض على ناصية الشهادة. وتتلو إلى جانب الشهادتين، شهادة الشهيد، وتوقّع بالدم ولادة الوطن الممنوع.

إلى السيد بغير قلمي

خذ قلمَك واكتب عن السيد حسن نصر الله.

قلتُ: لا يطيعني قلمي. لا يملك شهادة حسن سلوك. سيرة قلمي الذاتية مشوشة وشائكة ومتعرجة. ثم قلت: لا يستطيع قلمي أن يكتب عن السيد.

خذ قلمك واكتب عن السيد حسن نصر الله.

وألححتُ عليّ. حاولتُ الاعتذار. تشبثت بتنفيذ الأوامر، وطلبت من قلمي أن يمتثل لي، ويسجل حروفاً ناصعة عن السيد.

قمت إليه وسألته الحبر والحرف والكلام. فاعتذر.

قال: لا أستحق هذا القصاص. لا أستحق هذا العذاب. أنا قلم سهل، قصير القامة، وذو سيرة متواضعة وأحياناً وضيعة. اعتدت

التعامل مع رجال بقامتي، كقلم، لا أكثر ولا أقل، فكيف لي أن أحيط بالمحيط؟ كيف لي أن أرصد رجلاً بقامة قضية تختصر التاريخ والحقيقة والدم والسماء؟ كيف لي أن أجرؤ على تناول أمة في رجل ـــ ولا أملك في جعبتي إلّا أبجدية، مهما تزاوجت حروفها، تظل فقيرة، إزاء قاموس فذ، كلماته كلها جديدة علي؟

اعذرني، أنا قلم متورط في الكتابة عن العادي والسهل والتعاطي مع أحداث وتطورات، تلفظ أنفاسها بين حروفي. لست معتاداً على السيد. هل أقول إنه الرجل؟ هل أسميه البطل؟ هل أطلق عليه ألقاباً وأزيّنه بالنياشين؟ هل ألحقه بقافلة الأصنام المبجلين؟

لا ... ليس عندي لغة لألبس هذه القامة، نصاً يليق بظلها، فكيف به؟

قلت لقلمي: اكتب. حاول. اجترح. غامر. تجرأ. كن شجاعاً. كن... كن... لا تكن خائباً.

قال: لن أحاول. حبري عادي، وهو من صنف الإعجاز. اسمعه، فهو يخرج من عنف المقاومة بلين المصافحة والمداعبة. يلتقط خطوط التاريخ الكبرى، ويضيف إليها، يقظة معرفة التفاصيل الصغيرة. اسمعه مرة أخرى. نكون بانتظار الكارثة، فيبشرنا بالخلاص ونصدقه. لأنه صادق أكثر من اللزوم. حتى الأعداء يصدقونه، ويقال، إنهم لا يصدقون سواه، منا. اسمعه مراراً، نكون في حال ارتباك، فيرسم بيديه وعينيه وإطلالة كلامه، بوصلة الأيام القادمة. لا يأمر فيطاع، لا يطلب فيأخذ، لا يتكلم فيفهمون، لا يظهر فيرون. إنه الإعجاز يا رجل. وأنا قلم من بضاعة أيام

الأسبوع. أعرف نهار الاثنين وأنتقل إلى الآحاد، ومروراً بتراتب النهارات والليالي. أنا من صنف الحسابات الصغيرة. لا، لا أستطيع ملامسة أطرافه، فكيف أصل إلى عمق رجل، ابتسم راضياً شهادة ابنه. لم أصدقه وصدَّقته. قلتُ ابتسمَ باكياً، أو بكى مبتسماً. هل هذا كلام كافٍ؟ لا، إنه كلام عادي، لمعجزة احتضان الحزن والفرح معاً، لالتقاء الوداع بذراعين مكلومين يوزعان العزاء في عرس الشهادة.

أنا قلم متواطىء جداً مع السهولة واليسر. فلا تطلب مني ابتداع نبوءة للجمل والكلمات. فهذا رجل من صنف مفرد. لا صنف له أبداً. عرفت وكتبت عمن سبقه هنا وهناك. كتبت عن رجال عرب وعن رجال غربيين. أجَدت أحياناً وأصبت أحياناً، وتخلفت مراراً، إلّا أنني إزاء هذا «السيد»، أود لو أطلِّق الحبر، وأصير خزانة لكلماته ومواقفه وحارساً لدمه.

كيف أكتب عن رجل لا يشبهه إلّا الأولياء، وما تعرفت إلى أحد منهم من قبل؟

إني قلم مستنزف في مواقع كنت أظنها حقيقية، وفي مواقف كنت أنتمي إليها من رؤوس الشفاه. هنا، مع هذا الرجل، تشعر بأن السياسة صلاة، وأن المقاومة قداس، وأن المواقف تجلٍ، وأن الكلام يخرج من بين عينيه كأنه الآية.

انظر إلى عبوسه المحيط بعينين من فرح وإطلالة من ابتسام. انظر إلى يد تقرع الهواء، فيرتج النبض فينا ويختلج المكان. اسمعه

يا رجل. إن صوته عميق جداً، كأنه آيات من الأرض، تباركها آيات السماء.

إنني أفضل الكسل على حفاوة الاقتراب منه. دع لغيري أن يرسم له صورة بالكلمات. فأنا عاجز، وما أقوله الآن، برهان على أنني من رتبة مبتدئة في الكتابة. ولا طاقة لي على اختراع لغة بمقامه وقامته.

رجاء، اعفني من الكتابة عن السيد حسن نصر الله. أنا قلم يود لو يفرغ من صبره وقاموسه، ويهتدي إلى السراط المستقيم، الممتد من بؤبؤ القلب إلى عشق التراب، وامتداد الأفق الفلسطيني الذي يملأ القارات الخمس.

أود لو تهتدي يا رجل إلى قلم آخر، ينطق حباً لشعبه وأرضه، ويصوب رصاصاً إلى أعدائه. فلدى السيد حسن نصر الله وحده، هذا النوع من الأقلام الفريدة.

صدر للمؤلف

الطائفية على ضوء تاريخها ونتائجها، دراسة ١٩٧٦

حواشٍ على القيود، مقالات سياسية ١٩٨٠

رابندرانات طاغور، دراسة وتعريب ١٩٨٠

غابريللا ميسترال، دراسة وتعريب ١٩٨١

أول الموت، شعر ١٩٨٢

الخراب ـ يوميات شاعر في بيروت ١٩٨٣.

وطن وعصافير، قصص ١٩٩٣

بولينغ في بغداد، رياض الريّس للكتب للنشر ٢٠٠٣.

Bowling à Bagdad, Fayard 2004.

لو كنت يهودياً، رياض الريّس للكتب والنشر ٢٠٠٤.

نون الإيناس. لون ليان. النهار ٢٠٠٥

وبالفرنسية **I Comme Inès L. Comme Layann.**

نصري الصايغ

حوار الحفاة والعقارب

تغيّر العالم كثيراً: قرّرت أميركا احتكار حق الإمرة، وعلى الآخرين الطاعة أو الندم: «أنا روما فاتبعوني». واختارت أميركا أعداءها، ووجدت في «الشرق الأوسط» حقلاً لرمايتها وتنفيذاً لمجازر «الفوضى البناءة» في العراق وفلسطين ولبنان... والبقية آتية.

تغيّر العالم وفقدت الجيوش النظامية دورها وباتت عاجزة عن المواجهة، أو حماية قرار الممانعة.

فمن يحمي مصالح الدول المستضعفة والفقيرة؟ من يدفع عنها تهمة تلصق بها عنوة: الإرهاب، أو أسلحة الدمار الشامل.

هذا الكتاب يحاول الإجابة، من خلال التجارب التاريخية والراهنة، مقترحاً المقاومة، بكل أدواتها، بديلاً للجيوش، في استراتيجيات الدول المستضعفة.

لعله، بالمقاومة، يتغيّر العالم، بطريقة أخرى، ويصير أكثر احتراماً للحق والحرية والعدالة.



